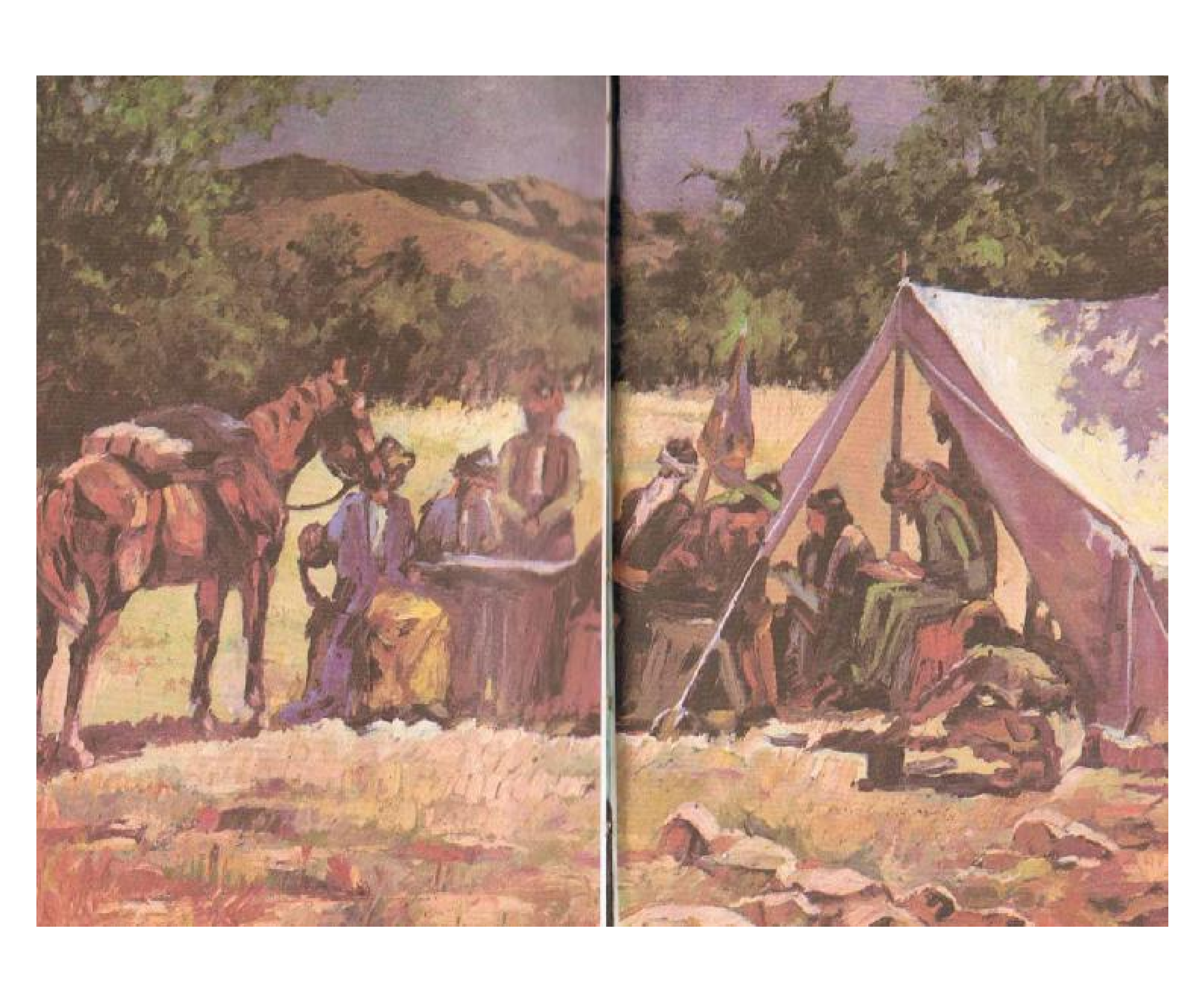


حكايات من تاريخ العرب

حِكايَات
مِن تَارِيخِ العَرَبِ



١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة

الطبعة الثانية
رقم الإيداع : ٢٣٠٧ / ٨٨
الترقيم الدولى : ٩٧٧-١٤٤٥-٦٥-٠ ISBN

طبع بمطابع دار المعارف - القاهرة

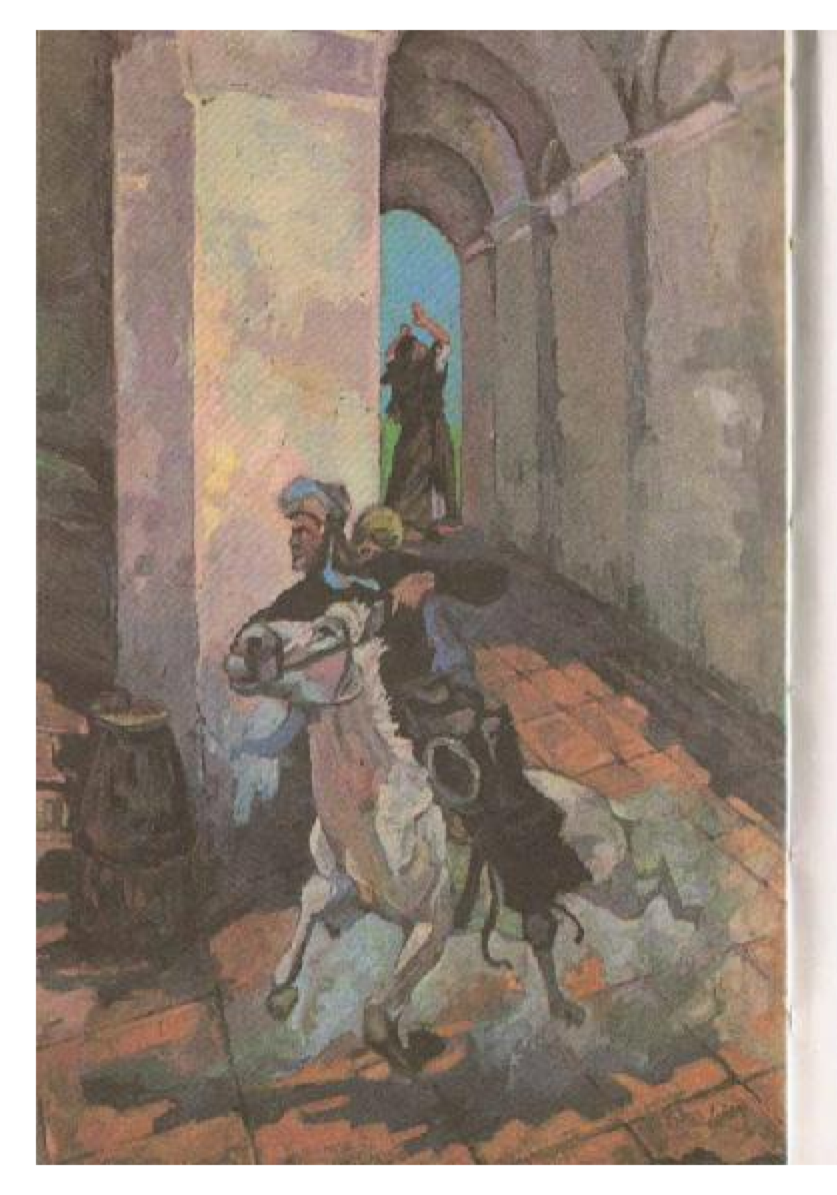
الحكايات اللطيفة

حكايات من تاريخ العرب



إعداد : حامد علي عطاري
رسوم : حمدي عبد الصمد

مكتبة لبنان
بيروت



ٱلْعَرَبِيُّ وَكَرَمُ ٱلضِّيافة

كانَ مَعْنُ بْنُ زائِدةَ عَرَبِيًّا شُجاعًا ، لَطيفَ ٱلْمَعْشَرِ ، كَريمَ ٱلْخُلُقِ . حارَبَ في صُفُوفِ جُيوشِ ٱلْمُسْلِمينَ ، وَٱنْتَصَرَ في عِدَّةِ مَعارِكَ . وَعِنْدَما تَقَدَّمَتْ بِهِ ٱلسِّنُّ ، عَيَّنَهُ ٱلْخَليفةُ عَلى وِلايَةِ خُراسانَ في بِلادِ فارِسَ . وَقَدْ رَوى ٱلتّاريخُ ٱلْعَرَبِيُّ ٱلْقِصَصَ ٱلطَّريفةَ عَنِ ٱبْنِ زائِدةَ ، نُورِدُ إِحْداها .

ذاتَ يَوْمٍ ، بَيْنَما كانَ مَعْنُ بْنُ زائِدةَ يَمْتَطي صَهْوَةَ جَوادِهِ في شارِعٍ مِنْ شَوارِعِ بَغْدادَ ، رَأى رَجُلًا يَبْكي ، وَيَصْرُخُ بِأَعْلى صَوْتِهِ : « أَيْنَ أَنْتَ يا ٱبْنَ زائِدةَ ؟ أَغِثْني مِنْ هٰذا ٱلشُّرْطِيِّ . » وَما إِنْ سَمِعَ ذٰلِكَ حَتّى هَبَّ في ٱلْحالِ لِنَجْدَتِهِ . أَرْدَفَهُ خَلْفَهُ ، وَلَكَزَ جَوادَهُ وَتابَعَ ٱلسَّيْرَ دُونَ أَنْ يَدْرِيَ أَنَّ هٰذا ٱلرَّجُلَ ٱلْمُسْتَغيثَ هُوَ مِنْ أَعْداءِ ٱلْخَليفةِ . أَمّا ٱلشُّرْطِيُّ فَقَدْ أَسْرَعَ إِلى رَئيسِهِ وَأَبْلَغَهُ بِما حَدَثَ .

غَضِبَ ٱلْخَليفةُ غَضَبًا شَديدًا وَٱسْتَدْعى ٱبْنَ زائِدةَ ، وَسَأَلَهُ : « لِمَ تُساعِدُ أَعْدائي عَلَيَّ ؟ هَلْ تَظُنُّ أَنَّكَ أَعْظَمُ مِنَ ٱلدَّوْلَةِ ؟ »

أَجابَهُ ٱبْنُ زائِدةَ : « حاشا لِلّٰهِ يا مَوْلايَ ، ما كُنْتُ أَدْري أَنَّ ٱلرَّجُلَ عَدُوُّكَ . لَقَدْ ناصَرْتُكَ ، كَما ناصَرْتُ والِدَكَ مِنْ قَبْلُ ؛ فَقَدْ

قَدَّمْتُ لِوالِدِكَ أَجَلَّ الخِدْماتِ ، وَهأَنَذا أَتفانى في خِدْمَتِكَ . استَجارَ بيَ الرَّجُلُ فَأَجَرْتُهُ ، وَلَنْ أَدَعَ أَحَدًا يأْخُذُهُ مِنّي ؛ فَالعَرَبيُّ كَريمٌ في طَبْعِهِ وَيَحْمي ضَيْفَهُ . هَلْ لي أَنْ أَطْمَعَ في كَرَمِ مَوْلايَ وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَصْفَحَ عَنْهُ إِكْرامًا لِخاطِري ؟ »

سُرَّ الخَليفَةُ مِنْ قَوْلِ مَعْنِ بْنِ زائِدَةَ أَيَّ سُرورٍ ، وَعَفا عَنِ الرَّجُلِ .

عَبّاسٌ وَيَحْيى

في إِحْدى الأَماسيِّ ، وَبَيْنَما كانَ الخَليفَةُ المَأْمونُ يَجْلِسُ في رَدْهَةِ قَصْرِهِ ، وَمَعَهُ عَدَدٌ مِنْ أَصْحابِهِ ، دَخَلَ عَلَيْهِ والي خُراسانَ يَزُفُّ إِلَيْهِ البَشائِرَ :

« لَقَدْ دَحَرَ جَيْشُكَ الأَعْداءَ ، وَقَبَضَ عَلى زَعيمِهِمْ . لَقَدْ جِئْتُ بِهِ إِلى بَغْدادَ ، وَهُوَ واقِفٌ بِبابِ قَصْرِكَ بِانْتِظارِ ما تَأْمُرونَ بِهِ . »

نَظَرَ الخَليفَةُ إِلى عَبّاسٍ ، أَميرِ الشُّرْطَةِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ الرَّجُلَ إِلى السِّجْنِ ، عَلى أَنْ يُعيدَهُ إِلَيْهِ في اليَوْمِ التّالي لِيَنْظُرَ في أَمْرِهِ . في الطَّريقِ إِلى السِّجْنِ ساوَرَتِ المَخاوِفُ أَميرَ الشُّرْطَةِ أَنْ يَلْجَأَ السَّجينُ إِلى الفِرارِ . قَلَّبَ المَوْضوعَ مِنْ جَميعِ جَوانِبِهِ ، فَقَرَّرَ أَنْ يَصْحَبَهُ مَعَهُ إِلى بَيْتِهِ بَدَلَ السِّجْنِ لِيَكونَ تَحْتَ رِقابَتِهِ المُباشِرَةِ . أَعْطى التَّعْليماتِ بِتَوْفيرِ الحِراسَةِ الكافِيَةِ طيلَةَ اللَّيْلِ . لَمْ تُغْمَضْ لِعَبّاسٍ عَيْنٌ بَلْ ظَلَّ ساهِرًا . وَفي الهَزيعِ الأَخيرِ مِنَ اللَّيْلِ بَدَأَ النُّعاسُ يُغالِبُ أَجْفانَهُ . عِنْدَها بَعَثَ بِطَلَبِ السَّجينِ وَأَجْلَسَهُ أَمامَهُ ، وَأَخَذا يَتَجاذَبانِ أَطْرافَ الحَديثِ .

بَدَأَ عَبّاسٌ بِمُساءَلَةِ السَّجينِ : « مِنْ أَيِّ البِلادِ أَنْتَ ؟ »

فَأَجابَهُ ٱلسَّجينُ : « إِنّي مِنْ مَدينَةِ مَرْو . »

عِنْدَما تَرَدَّدَ اسْمُ مَرْو عَلى مَسْمَعِ عَبّاسٍ قالَ لَهُ :

« ياهٰذا ! إِنّي أُحِبُّ مَرْو حُبًّا شَديدًا ، وَلِهٰذا ٱلْحُبِّ حِكايَةٌ أَرْويها لَكَ : كُنْتُ فيما مَضى أَميرَ ٱلشُّرْطَةِ في مَرْو . وَذاتَ يَوْمٍ شاهَدْتُ جُموعًا مِنَ ٱلرِّجالِ تُقاتِلُ جُنودَ ٱلْوالي . وَلَمّا اشْتَدَّ ٱلْقِتالُ تَوارَيْتُ مَعَ ٱلْوالي في ٱلْقَصْرِ ، وَلٰكِنْ كانَ مِنَ ٱلْخَطَرِ ٱلْبَقاءُ فيهِ طَويلًا . وَفي إِحْدى ٱللَّيالي ، نَزَلْتُ مِنْ فَوْقِ ٱلسّورِ ، وَوَلَّيْتُ ٱلْأَدْبارَ حَتّى بَلَغْتُ مَكانًا مَأْمونًا في ٱلْمَدينَةِ وَاخْتَبَأْتُ فيهِ . وَفي صَباحِ ٱلْيَوْمِ ٱلتّالي رَآني ٱلْأَهالي خارِجًا مِنَ ٱلْمَكانِ ، فَعَرَفوني . أَخَذْتُ أَجْري طَلَبًا لِلنَّجاةِ ، فَتَبِعوني ؛ وَكادوا يُمْسِكونَ بي ، لَوْلا أَنّي رَأَيْتُ يَحْيى بْنَ نافِعٍ واقِفًا أَمامَ بَيْتِهِ . عَرَفْتُهُ وَطَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ يُجيرَني ؛ فَفَعَلَ وَأَخْفَتْني زَوْجَتُهُ في مَخْدَعِها . وَعِنْدَما دَخَلَ ٱلْجُنودُ ٱلْبَيْتَ بَحْثًا عَنّي ، زَجَرَهُمْ يَحْيى ، وَصَرَخَتْ زَوْجَتُهُ فيهِمْ لِيُغادِروا ٱلْمَكانَ . وَهٰكَذا أَنْقَذَني يَحْيى مِنْ مَوْتٍ مُحَقَّقٍ . »

اسْتَأْنَفَ عَبّاسٌ ٱلْحَديثَ قائِلًا : « قَضَيْتُ في بَيْتِ يَحْيى عِدَّةَ أَشْهُرٍ . وَخِلالَ اخْتِفائي أَشْعَلَ ٱلْجُنودُ ٱلنّارَ في مَنْزِلي ، فَاضْطُرَّ خَدَمي إِلى مُغادَرَتِهِ . اسْتَشْعَرْتُ ٱلْخَطَرَ ٱلْمُحْدِقَ بي وَبِيَحْيى ، فَعَزَمْتُ عَلى ٱلذَّهابِ إِلى بَغْدادَ . وَقَدْ زَوَّدَني يَحْيى لِسَفَري بِمَلابِسَ

جَديدَةٍ وَزادٍ وَفيرٍ وَجَوادٍ وَخادِمٍ . فَعَلَ كُلَّ هٰذا مِنْ أَجْلي وَلا أَدْري كَيْفَ أَرُدُّ لَهُ بَعْضَ ٱلْجَميلِ ؟! وَٱلْآنَ ، هَلْ أَدْرَكْتَ لِماذا أُحِبُّ مَرْو ؟ »

بَعْدَ أَنِ انْتَهى عَبّاسٌ مِنْ سَرْدِ قِصَّتِهِ ، الْتَفَتَ إِلى ٱلرَّجُلِ وَسَأَلَهُ : « قُلْ لي ، لِماذا سَجَنوكَ ؟ »

فَرَدَّ عَلَيْهِ ٱلسَّجينُ : « لَمْ أَقْتَرِفْ ما يوجِبُ غَضَبَ ٱلْخَليفَةِ . إِنَّ أَعْدائي في مَرْو تَقَوَّلوا عَلَيَّ ، وَوَشَوْا بي لَدى ٱلْوالي ، فَصَدَّقَهُمْ ، وَبَعَثَ بي إِلى ٱلْخَليفَةِ . »

تَوَقَّفَ قَليلًا عَنِ ٱلْكَلامِ ثُمَّ سَأَلَ عَبّاسًا : « ياعَبّاسُ ! أَلا تَعْرِفُني ؟ طَبْعًا سَيَكونُ جَوابُكَ بِٱلنَّفْيِ ، وَخاصَّةً أَنَّ ٱلْعُمْرَ قَدْ تَقَدَّمَ بي ، وَتَغَيَّرَتْ مَلامِحُ وَجْهي خِلالَ نَيِّفٍ وَعِشْرينَ سَنَةً مُنْذُ آخِرِ لِقاءٍ لَنا .. أَنا يَحْيى بْنُ نافِعٍ . »

اسْتَوْلى عَلى عَبّاسٍ ٱلذُّهولُ وَأَخَذَ يَتَفَرَّسُ في وَجْهِ مُحَدِّثِهِ ، ثُمَّ قالَ : « ياإِلٰهي ! ما ٱلَّذي أَسْمَعُهُ ؟! لَقَدْ أَنْقَذْتَ حَياتي . لَقَدْ نَسيتُ وَجْهَكَ بِمُرورِ ٱلسِّنينَ . إِنَّكَ أَنْتَ يَحْيى بْنُ نافِعٍ بِعَيْنِهِ . ياصَديقِيَ ٱلْعَجوزَ ! يَجِبُ أَنْ أَجِدَ وَسيلَةً لِمُساعَدَتِكَ . يايَحْيى ! أَعِدَّ نَفْسَكَ لِلْفِرارِ ، وَسَيَتَوَلّى بَعْضُ رِجالي مُرافَقَتَكَ إِلى خارِجِ بَغْدادَ . »



رَفَضَ يَحْيى فِكْرَةَ ٱلفِرارِ خَشْيَةَ أَنْ يُؤَدِّي ذٰلِكَ إِلى أَنْ يَأْمُرَ ٱلخَلِيْفَةُ بِقَتْلِ عَبّاسٍ . وَٱتَّفَقا أَخيرًا عَلى أَنْ يَبْقَى يَحْيى في مَخْبَئِهِ ، وَيَذْهَبَ عَبّاسٌ إِلى ٱلخَليفَةِ ، وَيَعْرِضَ عَلَيْهِ ٱلقِصَّةَ بِكامِلِها .

في صَباحِ ٱليَوْمِ ٱلتّالي تَوَجَّهَ عَبّاسٌ وَحْدَهُ إِلى قَصْرِ ٱلخَلِيْفَةِ ٱلمَأْمونِ . وَما إِنْ رَآهُ بِدونِ ٱلسَّجينِ حَتّى ٱسْتَبَدَّ بِهِ ٱلغَضَبُ وَصاحَ : « لِمَ جِئْتَني بِدُونِ ٱلسَّجينِ ؟ »

تَقَدَّمَ عَبّاسٌ مِنَ ٱلخَليفَةِ ، وَرَوَى لَهُ ٱلقِصَّةَ كامِلَةً ، ثُمَّ أَضافَ

قائِلًا : « يامَوْلاي ! هٰذِهِ قِصَّتي مَعَ ٱلسَّجينِ ، وَلَكَ أَنْ تَقْطَعَ رَأْسي إِنْ شِئْتَ . وَلٰكِنّي لا أَسْتَطيعُ أَلبَتَّةَ أَنْ آتِيَكَ بِيَحْيى بنِ نافِعٍ . لَقَدْ أَنْقَذَ حَياتي مِنَ ٱلمَوْتِ في مَدينَةِ مَرْوٍ ، وَٱلواجِبُ يَدْعوني إِلى مُساعَدَتِهِ في بَغْدادَ وَٱلسَّعْيِ إِلى إِظْهارِ بَراءَتِهِ . »

كانَ ٱلخَلِيْفَةُ ٱلمَأْمونُ قَدْ رَزَقَهُ ٱللّٰهُ رَجاحَةَ ٱلعَقْلِ وَحُبَّ ٱلعَدْلِ ؛ وَلِذا طَلَبَ مِنْ عَبّاسٍ ، أَميرِ ٱلشُّرْطَةِ ، أَنْ يَأْتِيَهُ بِيَحْيى .

مَثَلَ يَحْيى بَيْنَ يَدَيِ ٱلخَلِيْفَةِ وَشَرَحَ أَمْرَهُ ، فَرَضِيَ ٱلخَلِيْفَةُ عَنْهُ ، وَمَنَحَهُ بَعْضًا مِنْ مَلابِسِهِ ٱلنَّفيسَةِ وَأَعادَهُ إِلى بَلَدِهِ مُعَزَّزًا مُكَرَّمًا .

سِرُّ عِكْرِمَةَ

تَقَعُ ٱلْجَزِيرَةُ في شَمالِ سُورِيا ، وَقَدْ عاشَ فيها خُزَيْمَةُ بْنُ بِشْرٍ . وَكانَ يُعْرَفُ عَنْهُ أَنَّهُ طَيِّبُ ٱلْقَلْبِ ، كَرِيمُ ٱلنَّفْسِ ، سَخِيُّ ٱلْيَدِ . ما قَصَدَهُ مُحْتاجٌ إِلَّا أَجابَ طَلَبَهُ ، حَتَّى وَلَوِ ٱسْتَلَفَ مِنَ ٱلْآخَرِينَ . وَلَمْ يَمْضِ طَوِيلُ زَمَنٍ حَتَّى أَصْبَحَ خالِيَ ٱلْوِفاضِ ، لا يَمْلِكُ مِنَ ٱلْمالِ شَيْئًا . وَلَمْ يَعُدْ أَحَدٌ يُقْرِضُهُ أَيَّ مَبْلَغٍ مَهْما كانَ ضَئِيلًا .

أَبَتْ كِبْرِياؤُهُ وَعِزَّةُ نَفْسِهِ أَنْ يَطْلُبَ ٱلْعَوْنَ مِنْ أَيِّ إِنْسانٍ كانَ . تَراكَمَتْ عَلَيْهِ ٱلدُّيُونُ ، وَأَخَذَ بِخِناقِهِ ضِيقُ ذاتِ ٱلْيَدِ حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلى شِراءِ ما يَلْزَمُهُ مِنْ طَعامٍ وَمَلابِسَ . دَأَبَ كُلَّ يَوْمٍ عَلى ٱلذَّهابِ إِلى ٱلْمَدِينَةِ لَعَلَّهُ يَحْصُلُ عَلى مالٍ يَشْتَرِي بِهِ طَعامًا يَسُدُّ بِهِ ٱلرَّمَقَ . وَلٰكِنْ أَبَى ٱلدَّهْرُ إِلَّا أَنْ يَثْقُلَ عَلَيْهِ ، وَيُذِيقَهُ مَرارَةَ ٱلْفَقْرِ .

لَجَأَ إِلى بَيْعِ ما في بَيْتِهِ حَتَّى كادَ يَخْلُو مِنَ ٱلْأَثاثِ . وَفي كُلِّ مَرَّةٍ يَذْهَبُ فيها إِلى ٱلْمَدِينَةِ ، كانَ يَعُودُ وَقَلْبُهُ مُفْعَمٌ بِٱلْحُزْنِ .

حاوَلَتْ زَوْجَتُهُ أَنْ تُخَفِّفَ عَنْهُ بَعْضَ أَحْزانِهِ فَخاطَبَتْهُ بِقَوْلِها : « يازَوْجِيَ ٱلْعَزِيزَ ! لا تَكُنْ مَطِيَّةً لِلشُّعُورِ بِٱلشَّقاءِ ، وَلا فَرِيسَةً لِلْغَمِّ وَٱلْحُزْنِ . يَجِبُ أَلَّا تَبْتَئِسَ ، فَٱللّٰهُ خالِقُ ٱلْكَوْنِ لَنْ يَنْساكَ ، وَما بَعْدَ ٱلضِّيقِ إِلَّا ٱلْفَرَجُ... »

كَرَّتِ ٱلْأَيَّامُ ، وَفَقْرُ خُزَيْمَةَ يَزْدادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ : تَهَلْهَلَتْ مَلابِسُهُ وَٱعْتَلَّ جِسْمُهُ وَنَحُفَ .



لَمَّا بَلَغَ فَقْرُهُ أَشُدَّهُ ، قَرَّرَ أَنْ يَحْبِسَ نَفْسَهُ فِي غُرْفَتِهِ ، وَقالَ لِزَوْجَتِهِ : « اسْتَمِعي إِلَيَّ يا عَزيزَتي . سَأَحْبِسُ نَفْسي في غُرْفَتي وَلَنْ أُكَلِّمَ أَحَدًا ، وَسَأَمْكُثُ في ٱلْبَيْتِ إِلى أَنْ أَموتَ جوعًا . »

تَسَرَّبَتْ أَنْباءُ ٱلْمُعاناةِ ٱلَّتي يَعيشُها خُزَيْمَةُ ، وَانْتَشَرَتْ في كَثيرٍ مِنَ ٱلْأَوْساطِ . سَمِعَ بِذٰلِكَ عِكْرِمَةُ الْفَيّاضُ والي ٱلْجَزيرَةِ ، فَاسْتَدْعى بَعْضَ أَصْدِقائِهِ وَسَأَلَهُمْ :

« ما الَّذي أَصابَ خُزَيْمَةَ ؟ إِنّي لَمْ أَرَهُ مِنْ عِدَّةِ أَسابيعَ . »

وَلَمّا وَقَفَ عَلى تَفاصيلِ ما أَصابَ خُزَيْمَةَ انْتابَهُ ٱلْحُزْنُ عَلَيْهِ ، وَأَخَذَ يُفَكِّرُ في وَسيلَةٍ لِغَوْثِهِ دونَ عِلْمٍ مِنْهُ .

غَيَّرَ عِكْرِمَةُ مَلابِسَهُ ، بِحَيْثُ لا يَنُمُّ مَظْهَرُهُ عَلى أَنَّهُ ٱلْوالي ، ثُمَّ وَضَعَ ٱللِّثامَ عَلى وَجْهِهِ . وَفي ساعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ مِنَ ٱللَّيْلِ امْتَطى صَهْوَةَ جَوادِهِ ، وَحَمَلَ مَعَهُ كيسًا مِنَ ٱلنُّقودِ ٱلَّتي أَخَذَها مِنْ بَيْتِ ٱلْمالِ . وَعِنْدَما بَلَغَ بَيْتَ خُزَيْمَةَ طَرَقَ ٱلْبابَ بِرِفْقٍ . وَما إِنْ فَتَحَ خُزَيْمَةُ ٱلْبابَ حَتّى أَلْقى عِكْرِمَةُ بِكيسِ ٱلنُّقودِ وَانْطَلَقَ بِجَوادِهِ مُسْرِعًا . وَلَمْ يَسْمَحِ ٱلْوَقْتُ لِخُزَيْمَةَ أَنْ يَسْأَلَ ٱلطّارِقَ عَمَّنْ يَكونُ ، كَما أَنَّ سَوادَ ٱللَّيْلِ لَمْ يُمَكِّنْهُ مِنْ رُؤْيَتِهِ .

كانَ خُزَيْمَةُ سَعيدًا ، إِذِ انْفَرَجَتْ ضائِقَتُهُ ؛ فَشَكَرَ اللهَ عَلى نِعَمِهِ . وَفي ٱلصَّباحِ غادَرَ ٱلْبَيْتَ لِيُسَدِّدَ دُيونَهُ ، وَلِيَشْتَرِيَ مَلابِسَ جَديدَةً وَطَعامًا .

أَخْفى عِكْرِمَةُ ما فَعَلَهُ ، وَلَمْ يَبُحْ بِهِ إِلّا لِزَوْجَتِهِ بَعْدَ أَنْ قَطَعَتْ وَعْدًا بِعَدَمِ إِفْشائِهِ .

بَعْدَ أَيّامٍ ، غادَرَ خُزَيْمَةُ ٱلْجَزيرَةَ ، وَقَصَدَ ٱلْخَليفَةَ في دِمَشْقَ لِيَجِدَ لَهُ عَمَلًا . وَكانَ ٱلْخَليفَةُ آنَذاكَ سُلَيْمانَ بْنَ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ . وَما إِنْ دَخَلَ عَلَيْهِ حَتّى انْشَرَحَ صَدْرُهُ لِرُؤْيَةِ شَخْصٍ عَظيمٍ كَخُزَيْمَةَ ، ثُمَّ خاطَبَهُ قائِلًا :

« يا خُزَيْمَةُ ! إِنَّكَ لَمْ تَزُرْ دِمَشْقَ مُنْذُ عَهْدٍ طَويلٍ . هَلْ أَقْعَدَكَ ٱلْمَرَضُ عَنْ ذٰلِكَ ؟ »

حَدَّثَ خُزَيْمَةُ ٱلْخَليفَةَ عَمّا قاساهُ مِنْ مَتاعِبَ ، وَنَوَّهَ بِقِصَّةِ ٱلرَّجُلِ ٱلْغَريبِ ٱلَّذي أَغاثَهُ دونَ أَنْ يَكْشِفَ خُزَيْمَةُ هُوِيَّتَهُ ، أَوْ يُمَيِّزَ مَلامِحَهُ .

تَعَجَّبَ ٱلْخَليفَةُ وَسَأَلَهُ : « كَيْفَ حَدَثَ هٰذا ؟ أَلَيْسَ عِكْرِمَةُ بِوالي ٱلْجَزيرَةِ ؟ أَلَمْ يَعْلَمْ بِمُعاناتِكَ ؟! لِمَ لَمْ يُبادِرْ بِتَقْديمِ ٱلْعَوْنِ لَكَ ، إِنْ كانَ قَدْ عَلِمَ بِحالِكَ ؟ حَقًّا إِنَّهُ لَيْسَ بِٱلْوالي ٱلصّالِحِ . »

أَمَرَ ٱلْخَليفَةُ كاتِمَ أَسْرارِهِ أَنْ يُحَرِّرَ رِسالَتَيْنِ ، أُولاهُما تَتَعَلَّقُ بِعَزْلِ عِكْرِمَةَ ، وَتَتَعَلَّقُ ٱلثّانِيَةُ بِتَعْيينِ خُزَيْمَةَ والِيًا بَدَلًا مِنْهُ .

عادَ خُزَيْمَةُ إِلى ٱلْجَزيرَةِ . وَلَمّا ذَهَبَ إِلى بَيْتِ ٱلْمالِ ، وَمَعَهُ عِكْرِمَةُ ، اكْتَشَفَ وُجودَ نَقْصٍ في ٱلْمالِ . سَأَلَ عِكْرِمَةَ عَنْ ذٰلِكَ ،

وَلٰكِنَّ عِكْرِمَةَ لَمْ يُجِبْهُ عَنْ سُؤالِهِ ، بَلْ قالَ لَهُ :

« لا أَسْتَطيعُ بِأَيِّ حالٍ مِنَ ٱلأَحْوالِ أَنْ أَقولَ لَكَ شَيْئًا عَنِ ٱلنُّقودِ ٱلْمَفْقودَةِ . »

عِنْدَها أَمَرَ خُزَيْمَةُ بِإيداعِهِ ٱلسِّجْنَ . وَقَدْ قَضى فيهِ رَدَحًا طَويلًا مِنَ ٱلزَّمَنِ ؛ فاعْتَلَّ جِسْمُهُ وَشارَفَ عَلى ٱلْمَوْتِ ، وَمَعَ ذٰلِكَ لَمْ يَبُحْ بِسِرِّ ٱخْتِفاءِ ٱلنُّقودِ .

راعَ زَوْجَةَ عِكْرِمَةَ سوءُ حالَةِ زَوْجِها ٱلصِّحِّيَّةِ ، فَقَرَّرَتْ — مُكْرَهَةً — أَنْ تَنْقُضَ وَعْدَها لِزَوْجِها بِعَدَمِ ٱلْبَوْحِ بِالسِّرِّ ٱلدَّفينِ . غادَرَتْ بَيْتَها وَقَصَدَتْ خُزَيْمَةَ بْنَ بِشْرٍ ، والِيَ ٱلْجَزيرَةِ ٱلْجَديدَ ، وَباحَتْ لَهُ بِسِرِّ ٱلنُّقودِ ٱلْمَفْقودَةِ مِنْ بَيْتِ ٱلْمالِ .

اسْتاءَ خُزَيْمَةُ مِنْ نَفْسِهِ لِأَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْ بِٱلْحَدْسِ سَبَبَ فِقْدانِ ٱلنُّقودِ ، فَالْمَبْلَغُ ٱلَّذي كانَ فِي ٱلْكيسِ ٱلَّذي تَلَقّاهُ يُساوي ٱلْمَبْلَغَ ٱلنّاقِصَ . وَشَعَرَ بِٱلْخِزْيِ لِمَوْقِفِهِ مِنْ صَديقِهِ ٱلصَّدوقِ ، ذٰلِكَ ٱلْغَريبِ ٱلْمُلَثَّمِ ٱلَّذي جاءَهُ لَيْلًا ، وَأَنْقَذَهُ مِنْ مِحْنَتِهِ ، وَٱلَّذي أَصْبَحَ فِي ٱلسِّجْنِ .

نَهَضَ خُزَيْمَةُ لِتَوِّهِ ، وَقَصَدَ ٱلسِّجْنَ ، وَأَطْلَقَ سَراحَ عِكْرِمَةَ ، وَاصْطَحَبَهُ مَعَهُ إِلى ٱلْقَصْرِ حَيْثُ قَدَّمَ لَهُ ٱلْمَلابِسَ ٱلْفاخِرَةَ ، ثُمَّ ذَهَبا مَعًا إِلى بَيْتِ عِكْرِمَةَ .



اغْتاظَ عِكْرِمَةُ عِنْدَما عَلِمَ أَنَّ زَوْجَتَهُ قَدْ نَقَضَتْ وَعْدَها ٱلَّذي قَطَعَتْهُ ، وَلٰكِنَّ خُزَيْمَةَ رَجاهُ أَنْ يَصْفَحَ عَنْها ، لِأَنَّها ما قَصَدَتْ إِلّا إِنْقاذَهُ مِنَ ٱلْمَوْتِ في ٱلسِّجْنِ .

لَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَويلٌ حَتّى ذَهَبَ خُزَيْمَةُ إِلى دِمَشْقَ . وَفي قَصْرِ ٱلْخِلافَةِ رَوى ٱلْقِصَّةَ كامِلَةً . سُرَّ ٱلْخَليفَةُ أَيَّ سُرورٍ بِما فَعَلَهُ عِكْرِمَةُ ، وَكافَأَهُ عَلى ذٰلِكَ بِتَعْيينِهِ والِيًا عَلى ثَلاثِ وِلاياتٍ وَلَيْسَ عَلى واحِدَةٍ فَقَطْ .

مَعْرَكَةُ ٱلْيَرْمُوكِ

خالِدُ بْنُ ٱلْوَليدِ مِنْ أَعْظَمِ قادَةِ ٱلْعَرَبِ ، وَأَبْرَزِ رِجالاتِهِمْ ، بِسَبَبِ ما كانَ يَتَمَيَّزُ بِهِ مِنْ حُنْكَةٍ عَسْكَرِيَّةٍ ، وَإِخْلاصٍ في ٱلْعَمَلِ ، وَشَجاعَةٍ فائِقَةٍ ، وَتَفانٍ في نَشْرِ ٱلإِسْلامِ وَرَفْعِ لِوائِهِ . فَلَقَدْ قادَ جُيوشَ ٱلْمُسْلِمينَ مِنْ نَصْرٍ إِلى نَصْرٍ ، وَهَزَمَ جُيوشَ ٱلأَكاسِرَةِ في جَنوبِ العِراقِ وَٱلْقَياصِرَةِ في بِلادِ ٱلشّامِ .

تَوَلّى أَبو بَكْرٍ ٱلصِّدّيقُ أَوَّلَ خِلافَةٍ في ٱلإِسْلامِ ، بَعْدَ وَفاةِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْكَريمِ (صَلّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) . وَفي حَياةِ ٱلنَّبِيِّ دانَتِ ٱلْقَبائِلُ ٱلْعَرَبِيَّةُ في شِبْهِ ٱلْجَزيرَةِ لِلإِسْلامِ حُبًّا لَهُ وَلِما جاءَ بِهِ مِنْ تَعاليمَ سَماوِيَّةٍ .

وَما إِنِ ٱنْتَقَلَ ٱلنَّبِيُّ مُحَمَّدٌ إِلى جِوارِ رَبِّهِ ، حَتّى ٱرْتَدَّتْ بَعْضُ ٱلْقَبائِلِ عَنِ ٱلإِسْلامِ ، وَخَرَجَتْ عَلى أَبي بَكْرٍ لِتَعودَ إِلى عِبادَةِ ٱلأَوْثانِ .

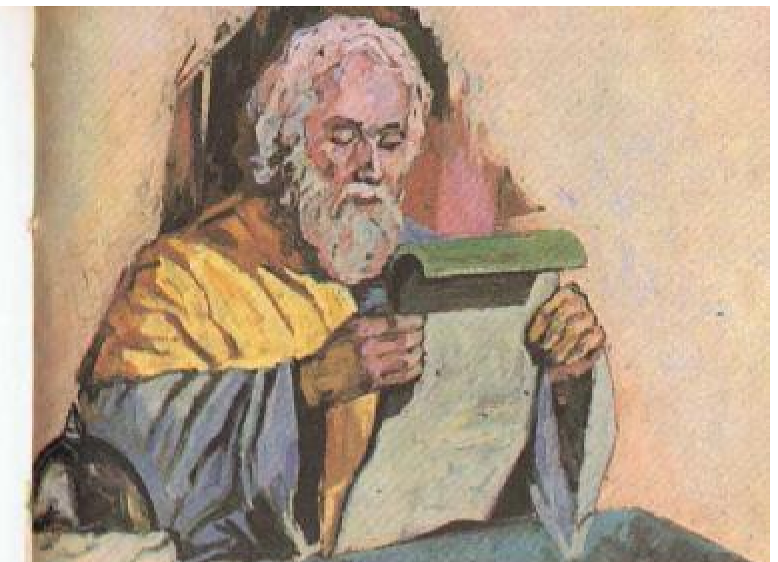
كانَ أَبو بَكْرٍ أَعَزَّ أَصْحابِ ٱلنَّبِيِّ (صَلّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَأَقْرَبَهُمْ إِلى قَلْبِهِ . وَقَدِ ٱشْتَهَرَ بِٱلْحِكْمَةِ ، وَسَدادِ ٱلرَّأْيِ ، وَٱلرَّأْفَةِ ، وَٱلتَّواضُعِ ، وَلَمْ يَتَوانَ عَنْ مُحارَبَةِ أَعْداءِ ٱلإِسْلامِ . بَعَثَ بِٱلْجُيوشِ

لِقِتالِ ٱلْمُرْتَدّينَ ، وَٱنْتَصَرَ عَلَيْهِمْ . كَما سَيَّرَ جُيوشًا أُخْرى إِلى بِلادٍ خارِجَ شِبْهِ ٱلْجَزيرَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَكانَ يَقْطُنُها عَرَبٌ كَثيرونَ تَحْتَ حُكْمِ مَنْ رَفَضوا ٱلدُّخولَ في ٱلإِسْلامِ . وَقَعَ ٱخْتِيارُ ٱلْخَليفَةِ أَبي بَكْرٍ عَلى خالِدِ بْنِ ٱلْوَليدِ لِيَقودَ ٱلْجَيْشَ لِقِتالِ ٱلْفُرْسِ في ٱلْعِراقِ أَوَّلاً ثُمَّ ٱلبيزَنْطِيّينَ في سورِيا ثانِيًا .

سارَ خالِدٌ عَلى رَأْسِ جَيْشِهِ شَمالاً ، وَبَدَأَ يَفْتَحُ ٱلْمُدُنَ ، ٱلْواحِدَةَ بَعْدَ ٱلأُخْرى . وَقَدْ تَمَّ لَهُ ٱلإِسْتيلاءُ عَلى ٱلْحيرَةِ جَنوبَ ٱلْعِراقِ وَطَرْدُ ٱلْفُرْسِ مِنْها . وَبَعْدَها سارَ بِجَيْشِهِ إِلى بِلادِ ٱلشّامِ ، وَعَسْكَرَ قَريبًا مِنْ نَهْرِ ٱلْيَرْموكِ . هُناكَ ٱنْضَمَّتْ إِلَيْهِ جُيوشٌ عَرَبِيَّةٌ أُخْرى تَحْتَ قِيادَتِهِ . أَمّا ٱلبيزَنْطِيّونَ في سورِيا فَقَدْ حَشَدوا جَيْشًا قِوامُهُ نَيِّفٌ وَمِائَةُ أَلْفِ جُنْدِيٍّ ، وَٱتَّخَذوا لَهُمْ مُعَسْكَرًا عَلى إِحْدى ضِفَّتَيْ نَهْرِ ٱلْيَرْموكِ ، قُبالَةَ جَيْشِ ٱلْمُسْلِمينَ . أَخَذَ ٱلْجَيْشانِ يَسْتَعِدّانِ لِخَوْضِ ٱلْمَعْرَكَةِ ٱلْفاصِلَةِ .

جَمَعَ خالِدٌ قادَةَ ٱلْفَصائِلِ لِوَضْعِ خُطَّةٍ حَرْبِيَّةٍ ، بَعْدَ أَنْ حَشَدَ ٱلبيزَنْطِيّونَ جَيْشًا تَعْدادُهُ ثَلاثَةُ أَضْعافِ جَيْشِ ٱلْمُسْلِمينَ أَوْ يَزيدُ .

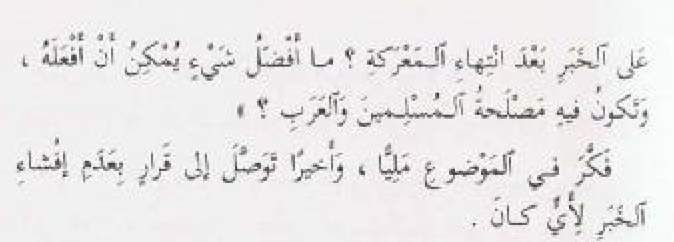
سَيَخوضُ جُنودُ ٱلْمُسْلِمينَ ٱلْمَعْرَكَةَ بِعَمْرُ قُلوبَهُمْ ٱلإيمانُ بِٱللهِ وَبِرَسولِهِ ، وَيُؤْمِنونَ بِقَوْلِهِ تَعالى ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَليلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثيرَةً بِإِذْنِ ٱللهِ ﴾ (صَدَقَ ٱللهُ ٱلْعَظيمُ) . كَما أَنَّ شَجاعَتَهُمْ وَطَلَبَ



ٱلاسْتِشْهادِ في سَبيلِ ٱللهِ سيُرَجِّحانِ كِفَّتَهُمْ .

في تِلْكَ ٱللَّيْلةِ وَصَلَ رَسولٌ مِنْ عِنْدِ ٱلخَليفةِ عُمَرَ بْنِ ٱلخَطَّابِ يَحْمِلُ رِسالةً تَنْعي أَبا بَكْرٍ . وَفي ٱلرِّسالةِ أَمْرٌ مِنْ عُمَرَ بْنِ ٱلخَطَّابِ بِعَزْلِ خالِدٍ عَنْ قِيادةِ ٱلجَيْشِ ، وَتَعْيينِ أَبي عُبَيْدةَ بْنِ ٱلجَرَّاحِ مَكانَهُ .

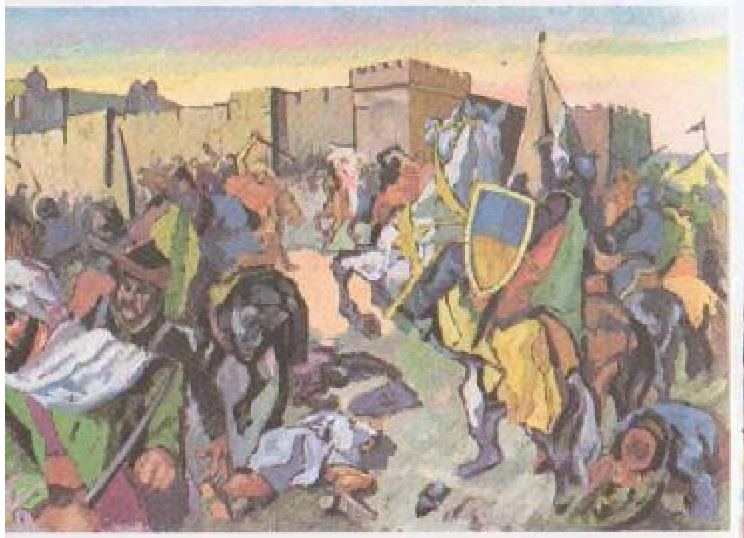
أَصْبَحَ أَبو عُبَيْدةَ في حَيْرةٍ مِنْ أَمْرِهِ . ساءَلَ نَفْسَهُ : « ما عَسايَ أَنْ أَفْعَلَ ؟ قَدْ يُثيرُ ٱلنَّبأُ غَضَبَ خالِدٍ . أَلَيْسَ مِنَ ٱلحِكْمةِ أَنْ أُطْلِعَهُ



عَلى ٱلخَبَرِ بَعْدَ انْتِهاءِ ٱلمَعْرَكةِ ؟ ما أَفْضَلُ شَيْءٍ يُمْكِنُ أَنْ أَفْعَلَهُ ، وَتَكونُ فيهِ مَصْلَحةُ ٱلمُسْلِمينَ وَٱلعَرَبِ ؟ »

فَكَّرَ في ٱلمَوْضوعِ مَلِيًّا ، وَأَخيرًا تَوَصَّلَ إِلى قَرارٍ بِعَدَمِ إِفْشاءِ ٱلخَبَرِ لِأَيٍّ كانَ .

أَشْرَقَتِ ٱلشَّمْسُ وَبَدَأَتْ مَعْرَكةُ ٱليَرْموكِ ٱلكُبْرى . إِنَّها مِنْ أَعْنَفِ ٱلمَعارِكِ في تاريخِ ٱلعَرَبِ ؛ اسْتَمَرَّتْ مِنَ ٱلصَّباحِ حَتَّى ٱلمَساءِ ، وَقَدِ امْتَلأَتْ أَجْواؤُها بِصَيْحاتِ ٱلجُنودِ وَأَنَّاتِ ٱلجَرْحى . وَكانَتْ سُحُبُ ٱلغُبارِ تُغَطِّي سَماءَ ٱلمَعْرَكةِ . كانَ عَلى ٱلجُنْديِّ



ٱلعَرَبِيُّ أَنْ يُقاتِلَ ثَلاثَةً أَوْ أَرْبَعَةً مِنْ جَيْشِ ٱلأَعْداءِ ، وَذٰلِكَ لِتَفَوُّقِهِمِ ٱلعَدَدِيِّ ، إِذْ كانُوا بِنِسْبَةِ ثَلاثَةٍ أَوْ أَرْبَعَةٍ إِلى واحِدٍ . وَكانَ خالِدٌ دائِمَ ٱلحَرَكَةِ ، يَتَنَقَّلُ بَيْنَ صُفُوفِ جُنْدِهِ وَيُثْني عَلى بَسالَتِهِمْ . وَبِهٰذا بَثَّ في نُفوسِهِمُ ٱلحَماسَ ؛ فَبَذَلوا ٱلجُهودَ ٱلمُضاعَفَةَ في قِتالِهِمْ .

وَلَمْ تَكُنْ ضَراوَةُ ٱلمَعْرَكَةِ تَسْمَحُ لِلْجُنودِ بِتَناوُلِ ٱلطَّعامِ أَوِ ٱلشَّرابِ . لَقَدِ استَمَرَّ ٱلجُنودُ ٱلعَرَبُ في قِتالِهِمْ ، وَكانوا أَشْبَهَ بِٱلنُّمورِ ٱلكاسِرَةِ ، وَلَمْ يُصِبْهُمُ ٱلكَلَلُ ، وَلَمْ يَسْتَوْلِ عَلَيْهِمُ ٱلمَلَلُ . وَما إِنْ حَلَّ ٱلظَّلامُ حَتّى انْجَلَتْ نَتيجَةُ ٱلمَعْرَكَةِ بِانْتِصارِ جَيْشِ خالِدٍ انْتِصارًا عَظيمًا ، كانَ مِنْ نَتيجَتِهِ خُروجُ ٱلبيزَنْطِيّينَ مِنْ سُورِيا إِلى غَيْرِ رَجْعَةٍ .

في ٱليَوْمِ ٱلتّالي لِلْمَعْرَكَةِ كانَ عَلى أَبي عُبَيْدَةَ أَنْ يَنْقُلَ إِلى خالِدٍ ما وَصَلَهُ مِنَ ٱلخَليفَةِ عُمَرَ .

لا شَكَّ أَنَّ خالِدَ بْنَ ٱلوَليدِ ، بَعْدَ ٱلنَّصْرِ ٱلَّذي أَحْرَزَهُ في مَعْرَكَةِ ٱليَرْموكِ ، ازْدادَ شُهْرَةً كَقائِدٍ . لَقَدْ كانَ أَشْجَعَ ٱلمُحارِبينَ وَأَكْثَرَهُمْ حِكْمَةً . كانَ ٱلسُّؤالُ ٱلَّذي يَتَرَدَّدُ : ما ٱلَّذي فَعَلَهُ بَعْدَ أَنْ عَلِمَ مِنْ أَبي عُبَيْدَةَ بِأَمْرِ عَزْلِهِ ؟

لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا ٱلبَتَّةَ ، بَلْ تَقَبَّلَ ٱلأَمْرَ بِصَدْرٍ رَحْبٍ ، دونَ أَنْ يُبْدِيَ

تَذَمُّرًا أَوِ اسْتِياءً ، وَقالَ لِأَبي عُبَيْدَةَ : « رَحِمَكَ اللهُ ! ما أَرَدْتَ إِلى ما صَنَعْتَ ؟ كَتَمْتَني أَمْرًا كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ أَعْلَمَهُ قَبْلَ ٱليَوْمِ . »

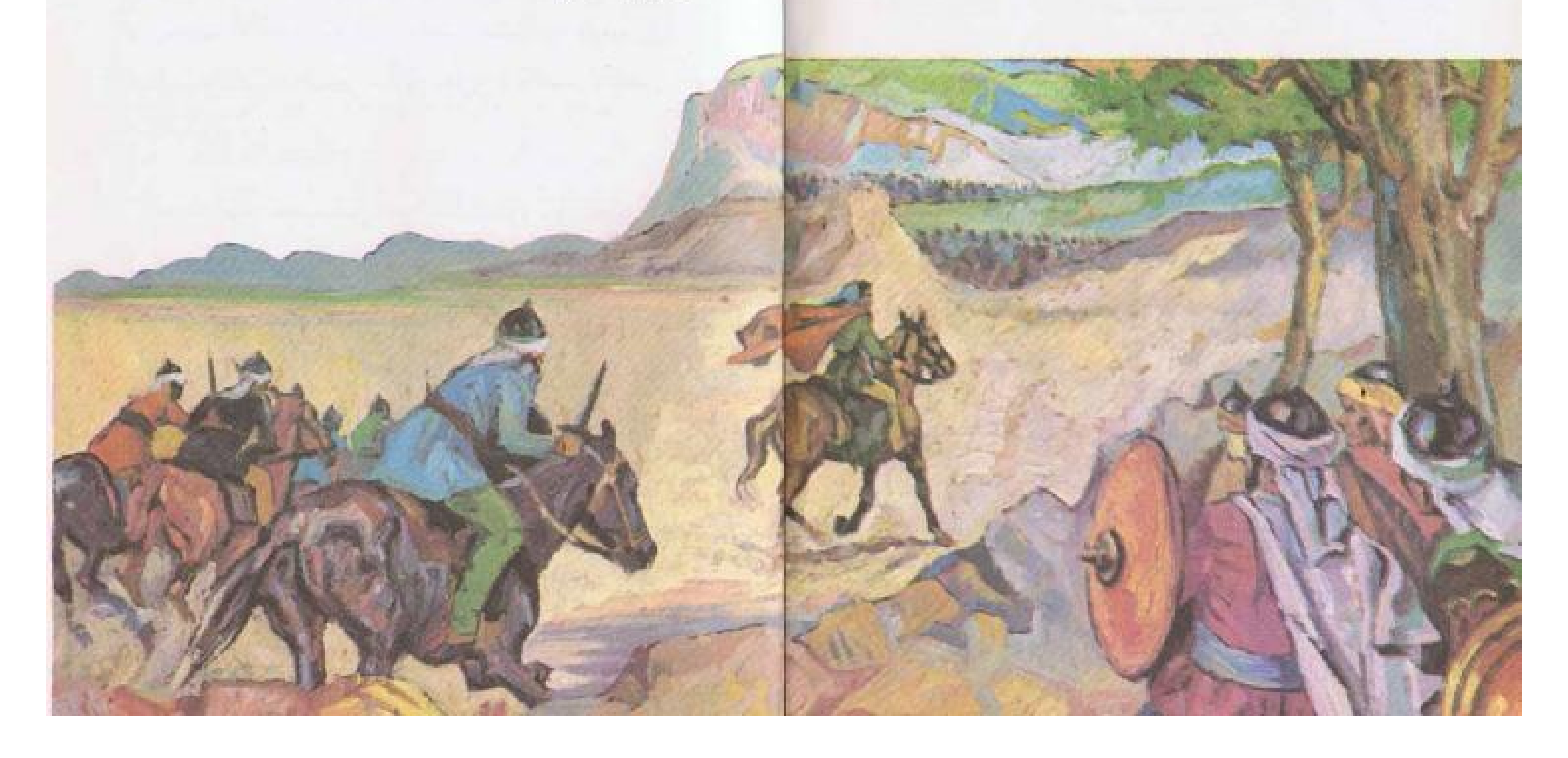
لَقَدْ خاضَ خالِدُ بْنُ ٱلوَليدِ عِدَّةَ مَعارِكَ ، وَفَتَحَ سُورِيا وَقِسْمًا مِنْ أَرْمينيا . وَعِنْدَما وافَتْهُ ٱلمَنِيَّةُ ، دُفِنَ في ٱلجامِعِ ٱلكَبيرِ بِمَدينَةِ حِمْصَ .

وَحَرِيٌّ بِمَنْ يَزورُ ٱلمَدينَةَ أَنْ يَقْصِدَ ضَريحَ خالِدٍ وَيَقْرَأَ عَلى روحِهِ ٱلفاتِحَةَ ؛ عَلى روحِ قائِدٍ عَرَبِيٍّ عَظيمٍ ، نَذْكُرُهُ بِكُلِّ اعْتِزازٍ وَفَخْرٍ .

امْرَأَةٌ شُجاعةٌ

كان خالِدُ بْنُ ٱلوَليدِ ، ٱلقائِدُ ٱلعَرَبِيُّ ٱلشَّهيرُ ، يَقودُ جَيْشًا صَغيرًا لِمُحارَبَةِ أَعْداءِ ٱلإِسْلامِ في شَمالِ شِبْهِ ٱلجَزيرةِ ٱلعَرَبِيَّةِ . وَقَدْ أَحْرَزَ هٰذا ٱلجَيْشُ عِدَّةَ ٱنْتِصاراتٍ ، وَكانَ مِنْ بَيْنِ ٱلـمُقاتِلينَ وَمِنَ ٱلشُّجْعانِ ٱلـمَعْدودينَ ضِرارُ بْنُ ٱلأَزْوَرِ ، وَهُوَ مِمَّنْ أَبْلَوْا ٱلبَلاءَ ٱلحَسَنَ في سَبيلِ نُصْرَةِ ٱلإِسْلامِ وَٱلـمُسْلِمينَ . وَفي إِحْدى ٱلـمَعارِكِ ٱلضّارِيَةِ شَقَّ ضِرارٌ طَريقَهُ وَسْطَ صُفوفِ ٱلأَعْداءِ ، فَأَسَروهُ .

وَكَثيرًا ما كانَتِ ٱلنِّساءُ ٱلعَرَبِيّاتُ يُرافِقْنَ ٱلجُيوشَ ٱلعَرَبِيَّةَ في غَزَواتِها ، لِيَقُمْنَ بِطَهْوِ ٱلطَّعامِ ، وَرَتْقِ ٱلـمَلابِسِ ، وَٱلسَّهَرِ عَلى راحَةِ ٱلـمَرْضى وَٱلجَرْحى .



وَكانَ لِضِرارٍ أُخْتٌ ٱسْمُها خَوْلَةُ رافَقَتِ ٱلْجَيْشَ . وَعِنْدَما بَلَغَها نَبَأُ أَسْرِ أَخيها ، غَضِبَتْ غَضَبًا شَديدًا . ارْتَدَتْ ثِيابَ جُنْدِيٍّ عَرَبِيٍّ ، وَغَطَّتْ أَسْفَلَ وَجْهِها بِلِثامٍ . ثُمَّ رَكِبَتْ جَوادًا ، وَهاجَمَتِ ٱلْعَدُوَّ بِمُفْرَدِها ، تُريدُ أَنْ تُنْقِذَ أَخاها مِنَ الأَسْرِ ، حَتّى وَلَوْ ضَحَّتْ بِحَياتِها .

عِنْدَما رَأى ٱلْجُنودُ ٱلْعَرَبُ أَنَّ فارِسًا خَرَجَ مِنْ بَيْنِ صُفوفِهِمْ ، يُريدُ أَنْ يُحارِبَ ٱلأَعْداءَ بِمُفْرَدِهِ ، أُعْجِبوا بِشَجاعَتِهِ وَتَبِعوهُ إِلى ساحَةِ ٱلْقِتالِ . واسْتَمَرَّتِ ٱلْمَعْرَكَةُ ٱلْيَوْمَ بِطولِهِ ، وَٱنْتَهَتْ بِٱنْتِصارِ ٱلْعَرَبِ وَهَزيمَةِ ٱلرّومِ .

أَخَذَتْ خَوْلَةُ تَبْحَثُ عَنْ أَخيها لِفَكِّ إِسارِهِ ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَعْثُرْ لَهُ عَلى أَثَرٍ ، فَقَدْ كانَ ، آنَذاكَ ، في طَريقِهِ إِلى دِمَشْقَ مَعَ ثُلَّةٍ مِنْ جُنودِ ٱلأَعْداءِ .

كانَ ٱلْقادَةُ ٱلْعَرَبُ وَجُنودُهُمْ يَرْغَبونَ في ٱكْتِشافِ هُوِيَّةِ ذٰلِكَ ٱلْفارِسِ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلْغامِضِ ، ٱلَّذي لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ أَحَدٌ ، وَلا حَتّى ٱلْقائِدُ خالِدُ بْنُ ٱلْوَليدِ . عَلى أَنَّهُمْ عِنْدَما جاءُوا بِخَوْلَةَ بِنْتِ ٱلأَزْوَرِ أَمامَ خالِدٍ ، وَعَرَفوها ، أَكْبَروا فيها شَجاعَتَها ، وَأَوْلَوْها كَبيرَ احْتِرامِهِمْ ، فَقَدْ فَعَلَتْ ما لَمْ يَفْعَلْهُ ٱلرِّجالُ .

انْتابَ خَوْلَةَ ٱلْحُزْنُ عَلى أَخيها ، فَلَمْ تَعْرِفْ لِلطَّعامِ مَذاقًا ، وَلا لِلنَّوْمِ سَبيلًا . وَطَلَبَتْ مِنْ خالِدٍ وَقادَتِهِ أَنْ يَبْعَثوا بِمَنْ يَقْتَفونَ أَثَرَ ٱلْعَدُوِّ لإِنْقاذِ أَخيها مِنَ ٱلأَسْرِ .

لَبّى خالِدٌ طَلَبَها ، وَأَرْسَلَ مَعَها بَعْضَ ٱلْجُنودِ لِلَّحاقِ بِجُنودِ ٱلأَعْداءِ . قَضَتْ خَوْلَةُ ، وَمَنْ مَعَها مِنَ ٱلْجُنودِ ٱلْعَرَبِ ، ٱللَّيْلَ وَالنَّهارَ في سَيْرِهِمْ ، حَتّى عَثَروا عَلى ضِرارٍ وَسْطَ ثُلَّةٍ مِنْ جُنودِ ٱلرّومِ .

اشْتَبَكَ الطَّرَفانِ في مَعْرَكَةٍ ضارِيَةٍ انْتَصَرَ فيها ٱلْعَرَبُ ، وَأَنْقَذوا ضِرارًا مِنَ ٱلأَسْرِ ، وَعادوا بِهِ فَرِحينَ . أَمّا خَوْلَةُ فَقَدْ تَلَقَّتْ مِنْ خالِدٍ وَقادَتِهِ أَعْظَمَ مَظاهِرِ ٱلْحَفاوَةِ وَٱلتَّكْريمِ .

وَتَخْليدًا لِهٰذِهِ ٱلْبُطولَةِ ٱلرّائِعَةِ ٱلَّتي أَبْدَتْها خَوْلَةُ بِنْتُ ٱلأَزْوَرِ ، سُمِّيَتِ ٱلْكَثيرُ مِنَ ٱلْمَدارِسِ بِٱسْمِها .

ٱلْخليفةُ ٱلرَّؤوفُ

عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطّابِ مِنْ أَعْظَمِ ٱلْخُلَفاءِ ٱلرّاشِدينَ . تَوَلّى ٱلْخِلافَةَ بَعْدَ وَفاةِ أَبي بَكْرٍ ٱلصِّدّيقِ ، وَعَمِلَ بِما جاءَ بِهِ ٱلنَّبِيُّ مُحَمَّدٌ في رِسالَتِهِ ، وَأَسْهَمَ في نَشْرِ كَلِمَةِ ٱلإِسْلامِ في ٱلْعَديدِ مِنَ ٱلْبُلْدانِ . وَفي عَهْدِهِ ٱتَّسَعَتْ رُقْعَةُ ٱلدَّوْلَةِ ٱلإِسْلامِيَّةِ فَشَمَلَتْ أَقْطارًا كَثيرَةً خارِجَ شِبْهِ ٱلْجَزيرَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ .

كانَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطّابِ حَريصًا عَلى تَوْفيرِ ٱلْقوتِ لِجَميعِ أَفْرادِ ٱلشَّعْبِ ، وَعَلى عَدَمِ خُروجِ أَحَدٍ عَلى أَحْكامِ ٱلشَّريعَةِ ٱلإِسْلامِيَّةِ ، كَما ٱنْتَشَرَ ٱلْعَدْلُ أَثْناءَ حُكْمِهِ . وَكَثيرًا ما كانَ يَخْرُجُ لَيْلًا مُتَنَكِّرًا في ثِيابِ بَدَوِيٍّ ، وَيَسيرُ في شَوارِعِ ٱلْمَدينَةِ ، وَيَخْتَلِطُ بِأَهْلِها لِيَسْمَعَ ما يَقولونَهُ عَنْهُ وَعَنْ حُكْمِهِ .

ذاتَ لَيْلَةٍ مَرَّ عُمَرُ بِبَيْتٍ فيهِ أَطْفالٌ يَبْكونَ . وَما إِنْ دَخَلَ ٱلْبَيْتَ حَتّى شاهَدَ بِضْعَةَ أَطْفالٍ يَجْلِسونَ في رُكْنٍ مِنْ أَرْكانِ ٱلْحُجْرَةِ ، عَلى حينِ تَقِفُ أُمُّهُمْ أَمامَ مَوْقِدٍ عَلَيْهِ قِدْرٌ يَتَصاعَدُ مِنْها ٱلْبُخارُ . وَكانَتْ تُحَرِّكُ ما في ٱلْقِدْرِ ، وَتَسْأَلُ أَطْفالَها ٱلْجِياعَ ٱلتَّرَيُّثَ حَتّى تَنْتَهِيَ مِنْ إِعْدادِ ٱلطَّعامِ لَهُمْ .

حارَ عُمَرُ وَتَساءَلَ إِنْ كانَ ثَمَّةَ خَطَأٌ وَراءَ ما يَرى وَما يَسْمَعُ فَتَوَجَّهَ إِلى ٱلأُمِّ قائِلًا :

« ٱلسَّلامُ عَلَيْكِ ، أَيَّتُها ٱلْعَجوزُ ٱلطَّيِّبَةُ . لِمَ يَبْكي أَطْفالُكِ ، مَعَ أَنّي أَرى ٱلطَّعامَ سَيَنْضَجُ بَعْدَ قَليلٍ ؟ أَلا يَسْتَطيعونَ ٱلانْتِظارَ ؟ »

نَظَرَتْ إِلَيْهِ ٱلْمَرْأَةُ بِعَيْنَيْنِ تُفْصِحانِ عَنِ ٱلأَلَمِ وَٱلْغَضَبِ ، وَأَجابَتْهُ عَنْ أَسْئِلَتِهِ قائِلَةً : « إِنَّ ٱلْخَليفَةَ لا يُفَكِّرُ قَطُّ في شَعْبِهِ بَلْ في نَفْسِهِ . إِنَّ هٰؤُلاءِ ٱلأَطْفالَ ٱلْفُقَراءَ لا والِدَ لَهُمْ ، وَلا طَعامَ يَسُدُّ رَمَقَهُمْ . » ثُمَّ ٱقْتَرَبَتْ مِنْهُ وَهَمَسَتْ في أُذُنِهِ : « تَعالَ وَٱنْظُرْ ما في ٱلْقِدْرِ . »

وَأَذْهَلَهُ أَنْ يَرى بَعْضَ ٱلْحَصى في ٱلْماءِ ٱلَّذي يَغْلي ، وَلا شَيْءَ سِواهُ . لَمْ يَكُنْ لَدى ٱلْمَرْأَةِ طَعامٌ تُقَدِّمُهُ لِأَطْفالِها ٱلْجِياعِ . كانَتْ



تَقْصِدُ بِتَحْرِيكِها ٱلطَّعامَ إِسْكاتَهُمْ إلى أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُمُ ٱلتَّعَبُ مَأْخَذَهُ فَيَناموا .

عِنْدَئِذٍ قالَ لَها ٱلخَليفَةُ : « هَلْ لَكِ أَنْ تَنْتَظِريني ؟ سَأَعودُ إِلَيْكِ في ٱلحالِ . »

تَرَكَها وَعادَ إلى بَيْتِ ٱلذَّخيرَةِ بِسُرْعَةٍ ، وَأَحْضَرَ كيسًا مَمْلوءًا بِٱلدَّقيقِ وَجَرَّةَ سَمْنٍ . وَحَمَلَ ٱلكيسَ عَلى ظَهْرِهِ ، وَأَمْسَكَ ٱلجَرَّةَ بِيَدِهِ ، وَقَصَدَ بَيْتَ ٱلمَرْأَةِ ٱلفَقيرَةِ . وَهُناكَ أَعَدَّ ٱلطَّعامَ وَأَطْعَمَ ٱلصِّبْيَةَ بِنَفْسِهِ ، وَقالَ لِلْمَرْأَةِ وَهُوَ يَهُمُّ بِالانْصِرافِ : « ياخالَةُ ، أَنا مِنْ أَقارِبِ أَميرِ ٱلمُؤْمِنينَ عُمَرَ ، وَسَأَذْكُرُ لَهُ حالَكِ . فَأْتيني غَدًا في دارِ ٱلخِلافَةِ تَجِديني هُناكَ . فَأَرْجي خَيْرًا . »

ذَهَبَتِ ٱلمَرْأَةُ فَاسْتَصْفَحَها عُمَرُ ، وَجَعَلَ لَها وَلِأَوْلادِها راتِبًا شَهْرِيًّا .

الخَليفَةُ ٱلمَأْمُونُ وَعَمُّهُ إِبْراهِيمُ

كانَ ٱلخَليفَةُ ٱلمَأْمونُ مِنْ أَعْظَمِ خُلَفاءِ ٱلمُسْلِمينَ ، فَفي عَهْدِهِ ٱتَّسَعَتْ رُقْعَةُ ٱلدَّوْلَةِ ٱلإِسْلامِيَّةِ ، وَشُيِّدَتِ ٱلمَدارِسُ على مُخْتَلِفِ أَنْواعِها . كَما عُرِفَ بِأَنَّهُ عادِلٌ في حُكْمِهِ ، رَؤوفٌ بِشَعْبِهِ ، كَريمٌ في خُلُقِهِ .

أَثْناءَ حُكْمِهِ حاوَلَ أَحَدُ أَعْمامِهِ ، إِبْراهيمُ بْنُ ٱلمَهْدِيِّ ، أَنْ يَخْلَعَهُ وَيَتَبَوَّأَ عَرْشَ ٱلخِلافَةِ مَكانَهُ مُسْتَعينًا بِنَفَرٍ مِنَ ٱلنّاسِ ، أَغْلَبُهُمْ مِنَ ٱلفُرْسِ . قامَ عَلى رَأْسِ أَنْصارِهِ بِقِتالِ جَيْشِ ٱلمَأْمونِ في خُراسانَ ، فَأَرْسَلَ ٱلمَأْمونُ ٱلمَزيدَ مِنَ ٱلجُنودِ لِإِخْمادِ ٱلفِتْنَةِ ، وَكانَ ٱلنَّصْرُ حَليفَ جَيْشِ ٱلخَليفَةِ . أَمّا إِبْراهيمُ فَقَدِ اضْطُرَّ إلى ٱلفِرارِ لِيَنْجُوَ بِنَفْسِهِ .

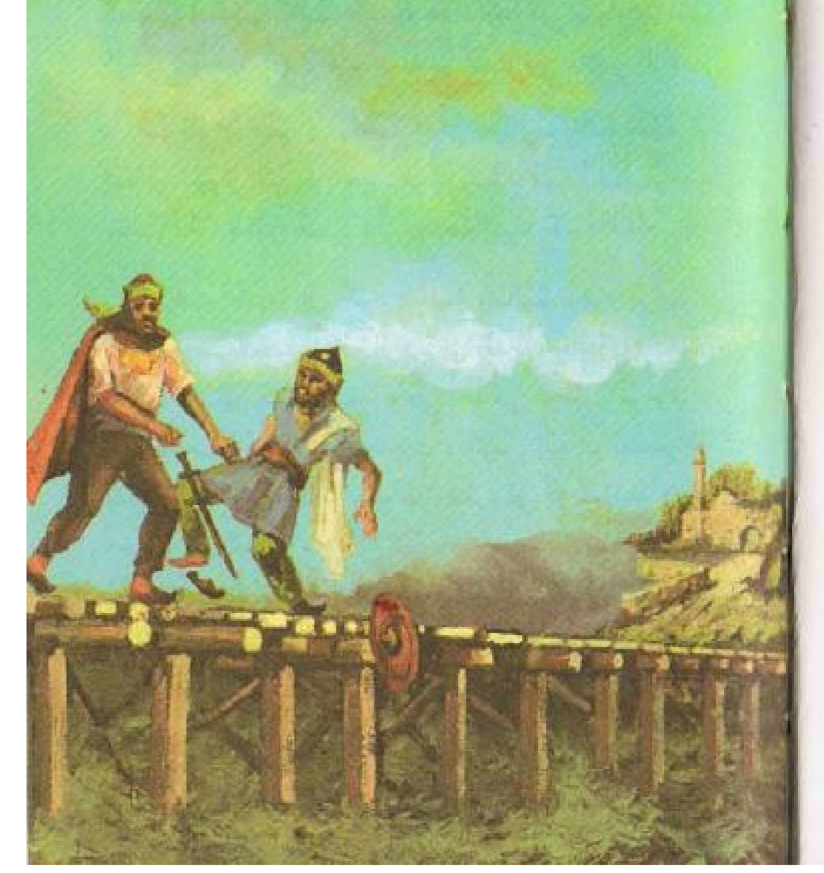
بَعَثَ ٱلمَأْمونُ بِمَنْ يَتَعَقَّبُ إِبْراهيمَ وَيُلْقي ٱلقَبْضَ عَلَيْهِ . وَأَعْلَنَ : « مَنْ يَجِئْني بِإِبْراهيمَ حَيًّا أَوْ مَيِّتًا أُكافِئْهُ . » وَكانَ إِبْراهيمُ مُخْتَفِيًا في بَغْدادَ ، وَسَمِعَ بِما قالَهُ ٱلمَأْمونُ . وَكانَ ٱلكَثيرونَ مِنْ أَهْلِ بَغْدادَ يَعْرِفونَهُ وَيُمَيِّزونَهُ عَنْ غَيْرِهِ ، وَكانَ بِمَقْدورِهِمْ أَنْ يُرْشِدوا عَنْ مَكانِ ٱخْتِبائِهِ . وَكانَ مِنْ عادَتِهِ أَنْ يُخْفِيَ وَجْهَهُ إِذا خَرَجَ مِنَ ٱلمَخْبَإِ لِشِراءِ ما يَلْزَمُهُ مِنْ طَعامٍ .

ذاتَ يَوْمٍ ، وَكانَ ٱلْجَوُّ حارًّا ، خَرَجَ إِبْراهيمُ يَسيرُ في أَحَدِ ٱلأَزِقَّةِ . وَعَلى بابِ أَحَدِ ٱلْبُيوتِ رَأى عَبْدًا أَسْوَدَ . تَقَدَّمَ مِنْهُ وَسَأَلَهُ بَعْضَ ٱلطَّعامِ ، وَرَجاهُ أَنْ يُخْفِيَهُ في بَيْتِهِ حَتّى حُلولِ ٱلظَّلامِ . عَرَفَ ٱلْعَبْدُ مُحَدِّثَهُ ، وَلٰكِنَّهُ رَحَّبَ بِهِ بِحَرارَةٍ وَقَدَّمَ لَهُ ٱلطَّعامَ وَٱلْفِراشَ . وَعِنْدَما أَرادَ إِبْراهيمُ أَنْ يُغادِرَ ٱلْبَيْتَ عَرَضَ عَلى مُضيفِهِ بَعْضَ ٱلنُّقودِ ، وَلٰكِنَّ ٱلْعَبْدَ رَفَضَ قَبولَها ، وَقالَ لَهُ : « لَقَدْ كُنْتَ ، ياسَيِّدي ، ضَيْفًا عَلَيَّ . ما أَنا إِلّا عَبْدٌ ، وَلٰكِنّي لا أَقْبَلُ ٱلنُّقودَ مِنْ ضَيْفٍ . لَوْ كُنْتَ ضَيْفًا عَلى رَجُلٍ حُرٍّ ، هَلْ كُنْتَ تُقَدِّمُ لَهُ مالًا ؟ أَرْجو ٱللهَ تَعالى أَنْ يَكونَ في عَوْنِكَ فيما أَنْتَ ذاهِبٌ إِلَيْهِ . »

بَكى إِبْراهيمُ لَدى سَماعِهِ ما قالَهُ مُضيفُهُ ، ثُمَّ شَكَرَهُ وَٱنْصَرَفَ إِلى حالِ سَبيلِهِ مُرْتَدِيًا ثِيابَ ٱمْرَأَةٍ ، وَهَرَبَ مِنْ بَغْدادَ . وَعَلى مَقْرُبَةٍ مِنْ جِسْرٍ كانَ يَقِفُ أَحَدُ ٱلْفُرْسانِ ٱلْجُنودِ ٱلَّذي عَرَفَ إِبْراهيمَ في ٱلْحالِ . تَذَكَّرَ ٱلْجُنْدِيُّ مُكافَأَةَ ٱلْخَليفَةِ ، فَحاوَلَ ٱلإِمْساكَ بِهِ ، وَلٰكِنَّ إِبْراهيمَ دَفَعَ بِهِ إِلى ٱلنَّهْرِ ، وَأَسْرَعَ في سَيْرِهِ ، سالِكًا طَريقًا أُخْرى .

وَفيما هُوَ سائِرٌ رَأى ٱمْرَأَةً عَلى بابِ بَيْتِها ، فَٱسْتَجارَ بِها قائِلًا : « هَلْ لَكِ أَنْ تُساعِديني ؟ إِنَّ جُنودَ ٱلْخَليفَةِ يَبْحَثونَ عَنّي ، وَلَوْ قَبَضوا عَلَيَّ لَقَتَلوني . »

قَبِلَتِ ٱلْمَرْأَةُ إِجارَتَهُ فَأَدْخَلَتْهُ بَيْتَها وَآوَتْهُ في إِحْدى ٱلْحُجُراتِ .



لَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَوِيلٌ حَتّى حَضَرَ زَوْجُها ، وفي جَبينِهِ جُرْحٌ عَميقٌ ، وَمَلابِسُهُ مُبْتَلَّةٌ . إِنَّهُ ٱلْجُنْديُّ نَفْسُهُ ٱلَّذي كانَ في حِراسَةِ ٱلْجِسْرِ . وَكانَ إِبْراهيمُ قَدْ قَصَّ عَلى ٱلْمَرْأَةِ حِكايَتَهُ مَعَ ذٰلِكَ ٱلْجُنْديِّ ، وَلٰكِنَّها كانَتْ عِنْدَ وَعْدِها : أَبْقَتْهُ في بَيْتِها دونَ أَنْ يَراهُ زَوْجُها . وَأَخيرًا رَأى إِبْراهيمُ أَنْ يُغادِرَ ٱلْبَيْتَ في مَلابِسِ امْرَأَةٍ .

لَمْ يَدْرِ إِبْراهيمُ أَيْنَ يَذْهَبُ ، وَأَيَّ طَريقٍ يَسْلُكُ ، وَلٰكِنَّهُ تَذَكَّرَ إِحْدى ٱلْعَجائِزِ مِنْ خادِماتِهِ . قَصَدَ بَيْتَها فاسْتَقْبَلَتْهُ بِكُلِّ تَرْحيبٍ ، وَقالَتْ لَهُ : « ابْقَ هُنا ، فَإِنّي خارِجَةٌ لِشِراءِ بَعْضِ ٱلطَّعامِ . »

أَسْرَعَتِ ٱلْخادِمَةُ إِلى جُنودِ ٱلْخَليفَةِ وَأَنْبَأَتْهُمْ بِوُجودِ إِبْراهيمَ في بَيْتِها . حَضَرَ ٱلْجُنودُ وَأَعادوا إِبْراهيمَ إِلى بَغْدادَ ، وَقادوهُ إِلى ٱلْخَليفَةِ . وَما إِنْ مَثَلَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْخَليفَةِ ، حَتّى أَخَذَ في ٱلْبُكاءِ ، ثُمَّ عَرَضَ عَلى مَسامِعِهِ ما قامَ بِهِ مِنْ مُجازَفاتٍ ، وَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ أَنْ يَصْفَحَ عَنْهُ . وَلٰكِنَّ رِجالَ ٱلْخَليفَةِ طالَبوا بِقَتْلِهِ جَزاءَ تَآمُرِهِ عَلى قَتْلِ ٱلْخَليفَةِ ؛ غَيْرَ أَنَّ أَحَدَهُمْ قالَ لِلْخَليفَةِ :

« يا أَميرَ ٱلْمُؤْمِنينَ ! يَسْتَطيعُ ٱلْمَرْءُ أَنْ يَقْتُلَ عَدُوَّهُ ، وَلٰكِنَّ ٱلرَّجُلَ ٱلْعَظيمَ فَقَطْ هُوَ ٱلَّذي يَسْتَطيعُ ٱلصَّفْحَ وَنِسْيانَ ٱلْإِساءَةِ . فَٱلْعَفْوُ عِنْدَ ٱلْمَقْدِرَةِ . »

فَكَّرَ ٱلْخَليفَةُ مَلِيًّا ، ثُمَّ خاطَبَ إِبْراهيمَ قائِلًا :

« سَأَعْفو عَنْكَ يا عَمّي ، لِأَنّي أَرى أَنَّكَ نادِمٌ حَقًّا عَلى ما فَعَلْتَ . اِذْهَبْ إِلى زَوْجَتِكَ وَأَوْلادِكَ ، وَلٰكِنْ تَذَكَّرْ أَنَّ مِنَ ٱلسَّهْلِ عَلى ٱلْمَرْءِ أَنْ يُعاقِبَ غَيْرَهُ ، وَلٰكِنَّ ٱلْأَفْضَلَ مِنْ ذٰلِكَ ٱلصَّفْحُ عَنْهُ . »

ثُمَّ خاطَبَ ٱلْخَليفَةُ ٱلْمَرْأَتَيْنِ وَٱلْجُنْديَّ وَٱلْعَبْدَ ٱلْأَسْوَدَ ، بَعْدَ أَنْ بَدا عَلَيْهِ اسْتِياؤُهُ مِنْ خادِمَةِ إِبْراهيمَ ، وَقالَ لَهُمْ : « عَلى ٱلْعَرَبِيِّ أَنْ يُكْرِمَ ضَيْفَهُ وَيَشْمَلَهُ بِرِعايَتِهِ . » وَٱمْتَدَحَ ٱلْجُنْديَّ ٱلشُّجاعَ وَزَوْجَتَهُ ، وَلٰكِنَّهُ أَطْنَبَ في مَدْحِ ٱلْعَبْدِ ٱلْأَسْوَدِ ، وَأَمَرَ بِإِعْتاقِهِ ، وَنَفَحَهُ بَعْضَ ٱلْمالِ . وَقَدْ أَصْبَحَ هٰذا ٱلْعَبْدُ مِنْ أَفْضَلِ جُنودِ ٱلْخَليفَةِ .

طارِقُ بْنُ زِيادٍ

يَفْصِلُ ٱلْمَغْرِبَ عَنْ إِسْبانِيا مَمَرٌّ مائِيٌّ ضَيِّقٌ يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ « مَضيقِ جَبَلِ طارِقٍ » وَإِلى ٱلشَّمالِ مِنْهُ يَقَعُ جَبَلُ طارِقٍ . وَقَدْ يَتَساءَلُ ٱلْبَعْضُ : « لِمَ ٱكْتَسَبَ ٱلْمَضيقُ وَٱلْجَبَلُ هٰذا ٱلاسْمَ ؟ » لَقَدْ سُمِّيا بِاسْمِ ٱلْقائِدِ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلشَّهيرِ طارِقِ بْنِ زِيادٍ ٱلَّذي عَبَرَ بِجَيْشِهِ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ خِلالَ هٰذا ٱلْمَضيقِ إِلى ٱلْبَحْرِ ٱلْمُتَوَسِّطِ ، وَفَتَحَ إِسْبانِيا .

مُنْذُ زَمَنٍ طَويلٍ ، تَوالَتِ ٱلْفُتوحاتُ ٱلإِسْلامِيَّةُ حَتّى شَمَلَتْ ما بَيْنَ ٱلنَّهْرَيْنِ (ٱلعِراقَ) ، وَبِلادَ فارِسَ ، وَجُزْءًا مِنَ ٱلْهِنْدِ ، وَبِلادَ ٱلشّامِ وَما يَقَعُ إِلى شَمالِها . كَما ٱمْتَدَّتِ ٱلْفُتوحاتُ فَشَمَلَتْ مِصْرَ وَشَمالَ إِفْريقِيَّةَ ، ثُمَّ ٱتَّجَهَتْ عُيونُ ٱلْقادَةِ ٱلْمُسْلِمينَ إِلى أُورُبَّةَ ، وَكانَتْ إِسْبانِيا أَقْرَبَ بَلَدٍ أُورُبِّيٍّ إِلَيْهِمْ .

وَفي ٱلْمَغْرِبِ كانَ يُعَسْكِرُ جَيْشٌ عَرَبِيٌّ ، صَغيرٌ في عَدَدِهِ ، قَوِيٌّ بِجُنْدِهِ ، يَتَوَلّى قِيادَتَهُ طارِقُ بْنُ زِيادٍ ، ٱلَّذي عُرِفَتْ عَنْهُ ٱلشَّجاعَةُ ، وَٱلْبَراعَةُ في فُنونِ ٱلْقِتالِ .

بَنى طارِقٌ بَعْضَ ٱلسُّفُنِ وَٱنْتَقَلَ بِجُنودِهِ وَخُيولِهِمْ عَبْرَ ٱلْبَحْرِ ٱلْمُتَوَسِّطِ إِلى إِسْبانِيا قَبْلَ أَكْثَرَ مِنْ ١٢٠٠ سَنَةٍ . أَصْبَحَ طارِقٌ

وَجَيْشُهُ عَلى أَرْضِ ٱلْعَدُوِّ ، ٱلْبَحْرُ مِنْ وَرائِهِمْ وَٱلْعَدُوُّ أَمامَهُمْ . وَلَمْ يَكُنْ وُصولُ ٱلنَّجَداتِ ٱلْعَسْكَرِيَّةِ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ مُتَيَسِّرًا .

كانُوا يَقِفونَ أَمامَ جَيْشٍ قَوِيٍّ في عَدَدِهِ وَعُدَّتِهِ بَلَغَ نَيِّفًا وَمِئَةَ أَلْفِ مُقاتِلٍ ، بَيْنَما لَمْ يَزِدْ عَدَدُ ٱلْمُسْلِمينَ عَلى سَبْعَةِ آلافٍ .

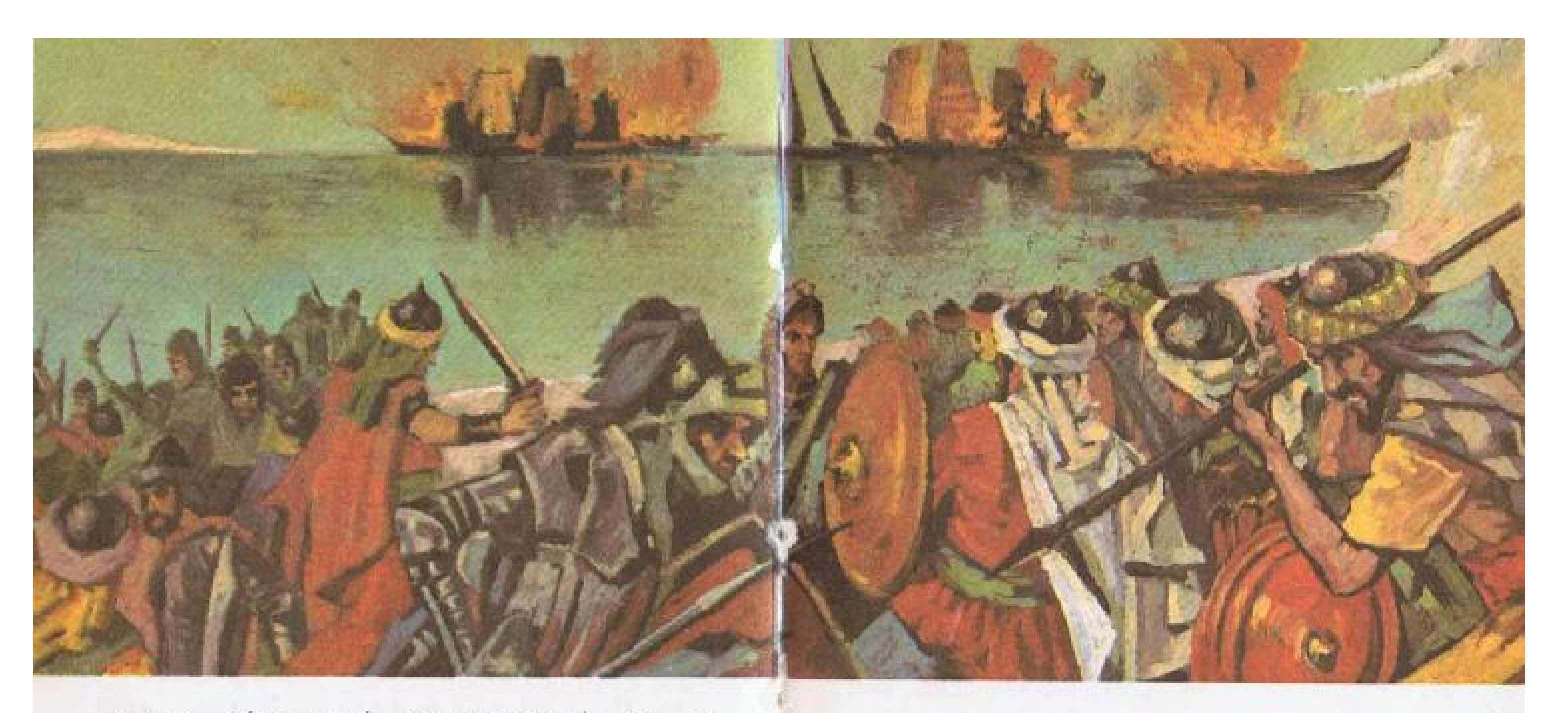
أَدْرَكَ طارِقٌ ٱلْمَصاعِبَ ٱلَّتي يُواجِهُونَها ؛ فَسُفُنُ ٱلْعَرَبِ قَليلَةٌ ، وَفُرَصُ ٱلنَّجاةِ ضَئيلَةٌ . وَلَوْ هُزِمُوا لَقَضَى ٱلإِسْبانُ عَلَيْهِمْ ؛ لِذا رَأى أَنَّ ٱلْوَضْعَ يَعْني ٱلانْتِصارَ أَوِ ٱلْمَوْتَ .

أَمَرَ طارِقٌ بَعْضَ رِجالِهِ بِإِحْراقِ ٱلسُّفُنِ . وَما إِنْ رَأى جُنودُهُ ٱلنّيرانَ تَلْتَهِمُ سُفُنَهُمْ حَتّى ٱنْتابَهُمُ ٱلْخَوْفُ ، ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ ٱلأَعْداءَ قَدْ حَرَقُوها . أَخَذوا يَصْرُخُونَ : « لَقَدِ ٱنْتَصَرَ ٱلْعَدُوُّ عَلَيْنا . سَيَكونُ مَصيرُنا ٱلْمَوْتَ . »

عِنْدَها وَقَفَ فيهِمْ طارِقٌ خَطيبًا . قالَ :

« لَقَدْ أَمَرْتُ بِإِحْراقِ ٱلسُّفُنِ . أَيُّها ٱلنّاسُ ! أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ؟ ٱلْبَحْرُ مِنْ وَرائِكُمْ ، وَٱلْعَدُوُّ أَمامَكُمْ ، وَلَيْسَ لَكُمْ وَاللهِ إِلّا ٱلصِّدْقُ وَٱلصَّبْرُ . أَيُّها ٱلنّاسُ ! ما فَعَلْتُ مِنْ شَيْءٍ فافْعَلوا مِثْلَهُ . إِنْ حَمَلْتُ فاحْمِلوا ، وَإِنْ تَوَقَّفْتُ فَقِفوا . احْمِلوا حَمْلَةَ رَجُلٍ واحِدٍ ، وَاهْزِموا أَعْداءَكُمْ . إِنَّنا هاهُنا باقونَ وَلَنْ نَبْرَحَ إِسْبانِيا . »

وَما إِنْ كَبَّرَ طارِقٌ حَتّى ٱنْدَفَعَ ٱلْفُرْسانُ ٱلْمُسْلِمُونَ يَطْلُبونَ



ٱلشَّهادَةَ لِتُكْتَبَ لَهُمُ ٱلحَياةُ . وَأَمامَ ضَرَباتِ ٱلمُسْلِمينَ ٱلقاتِلَةِ ، أَخَذَ ٱلإِسْبانُ يَتَراجَعُونَ ، ثُمَّ وَلَّوا هارِبينَ يَطْلُبونَ ٱلنَّجاةَ لِأَنْفُسِهِمْ . وَلَحِقَ ٱلمُسْلِمونَ بِفُلولِهِمْ فَأَوْقَعوا بِهِمْ خَسائِرَ فادِحَةً .

دامَ حُكْمُ ٱلعَرَبِ في إِسْبانيا أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِمِئَةٍ وَثَمانينَ سَنَةً . وَمَعَ راياتِ ٱلإِسْلامِ ، رَفْرَفَ ٱلعَدْلُ وَٱلحُرِّيَّةُ ، وَبَدَأَ ٱلعَهْدُ ٱلذَّهَبِيُّ فيها . لَقَدْ نَشَرَ ٱلعَرَبُ ٱلعِلْمَ وَٱلحَضارَةَ في إِسْبانيا ، وَسُرْعانَ ما ٱنْتَشَرا في رُبوعِ أُورُبَّةَ ٱلَّتي كانَتْ غارِقَةً في دَياجيرِ ٱلجَهْلِ وَٱلتَّخَلُّفِ

ٱلحَضارِيِّ . وَلَوْ زُرْتَ إِسْبانيا ٱليَوْمَ ، لَشاهَدْتَ ٱلكَثيرَ مِنَ ٱلمَباني ٱلعَرَبِيَّةِ ٱلجَميلَةِ ٱلَّتي شَيَّدوها . سَتَرى قَصْرَ ٱلحَمْراءِ في مَدينَةِ غَرْناطَةَ ، وَٱلجامِعَ ٱلكَبيرَ في قُرْطُبَةَ . لَقَدْ فَقَدَ ٱلعَرَبُ إِسْبانيا لٰكِنَّهُمْ خَلَّفوا ما يَشْهَدُ بِعَظَمَتِهِمْ .

فَتَحَ ٱلعَرَبُ إِسْبانيا بِفَضْلِ ٱلقائِدِ ٱلعَظيمِ طارِقِ بْنِ زيادٍ ٱلَّذي أَحْرَقَ ٱلسُّفُنَ ، وَبَثَّ في جُنودِهِ روحَ ٱلِاسْتِبْسالِ في ٱلقِتالِ ، في سَبيلِ نُصْرَةِ ٱلإِسْلامِ . حَقًّا لَقَدْ حارَبوا فَٱنْتَصَروا .

صَلاحُ ٱلدِّينِ ٱلأَيُّوبِيُّ

صَلاحُ ٱلدِّينِ ٱلأَيُّوبِيُّ مِنْ أَعْلامِ ٱلحُكّامِ ٱلمُسْلِمينَ ، وَقائِدٌ مَرْمُوقٌ مِنْ عُظَماءِ قادَتِهِمْ .

لَمْ تَقْتَصِرْ شُهْرَةُ صَلاحِ ٱلدِّينِ عَلى ٱلعالَمِ ٱلعَرَبِيِّ ، بَلِ ٱمْتَدَّتْ إِلى ٱلقارَّةِ ٱلأُورُبِّيَّةِ . عاصَرَ ٱلصَّليبِيِّينَ في فِلَسْطينَ ، وَحارَبَهُمْ ، وَٱنْتَصَرَ عَلَيْهِمْ وَأَخْرَجَهُمْ مِنْ دِيارِ ٱلإِسْلامِ .

لَقَدْ سَبَقَ لِمُلوكِ أُورُبَّةَ أَنْ حَشَدُوا جُيوشًا مِنْ أَنْحاءٍ مُخْتَلِفَةٍ في أُورُبَّةَ وَقادُوها إِلى فِلَسْطينَ ، زاعِمِينَ أَنَّ ٱلمُسْلِمينَ يَمْنَعونَ ٱلحُجّاجَ ٱلمَسيحِيِّينَ مِنْ زِيارَةِ ٱلأَماكِنِ ٱلمُقَدَّسَةِ . وَلٰكِنَّ ٱدِّعاءَهُمْ باطِلٌ ، فَٱلكَنائِسُ كانَتْ مَفْتوحَةً ، يَحُجُّ إِلَيْها مَنْ أَرادَ دونَ أَنْ يَتَعَرَّضَ ٱلمُسْلِمونَ لَهُمْ . لَمْ يَقْدَمِ ٱلصَّليبِيُّونَ لِهٰذا ٱلسَّبَبِ وَإِنَّما لِأَسْبابٍ أُخْرى .

إِسْتَمَرَّتِ ٱلحَمَلاتُ ٱلصَّليبِيَّةُ لِمِئاتِ ٱلسِّنينَ ، ٱسْتَوْلَوْا خِلالَها عَلى أَجْزاءٍ مِنْ بِلادِ ٱلشّامِ وَٱلَّتي تَضُمُّ سورِيا وَلُبْنانَ وَٱلأُرْدُنَّ وَفِلَسْطينَ . وَقَدْ تَوَّجُوا فُتوحاتِهِمْ بِالِاسْتِيلاءِ عَلى مَدينَةِ بَيْتِ ٱلمَقْدِسِ .

كُلُّ مَنْ يَزورُ بِلادَ ٱلشّامِ لابُدَّ أَنْ يُشاهِدَ ٱلقِلاعَ ٱلقَديمَةَ ٱلَّتي بَناها ٱلصَّليبِيُّونَ عَلى قِمَمِ ٱلهِضابِ لِلاحْتِماءِ فيها مِنْ غاراتِ ٱلعَرَبِ .

حارَبَ ٱلعَرَبُ ٱلصَّليبِيِّينَ زَمَنًا طَويلًا لِطَرْدِهِمْ مِنَ ٱلبِلادِ ٱلَّتي ٱحْتَلُّوها . وَقَدِ ٱسْتَطاعَ صَلاحُ ٱلدِّينِ أَنْ يُلْحِقَ بِهِمْ شَرَّ هَزيمَةٍ ، وَذٰلِكَ في مَعْرَكَةِ حِطّينَ ٱلشَّهيرَةِ في ٱلشَّمالِ مِنْ فِلَسْطينَ . وَفي عام ١١٨٧ م (أَلْفٍ وَمِئَةٍ وَسَبْعٍ وَثَمانينَ) خَلَّصَ صَلاحُ ٱلدِّينِ مَدينَةَ بَيْتِ ٱلمَقْدِسِ مِنَ ٱلصَّليبِيِّينَ . وَبِهٰذا طُوِيَتْ آخِرُ صَفْحَةٍ مِنْ سِجِلِّ اغْتِصابِ ٱلصَّليبِيِّينَ لِلْأَراضي ٱلمُقَدَّسَةِ ، بَدَأُوا عَلى أَثَرِها ، يَنْسَحِبونَ نِهائِيًّا إِلى بِلادِهِمْ .

وَما قِصَّةُ صَلاحِ ٱلدِّينِ مَعَ ٱلمَلِكِ رِيتْشارد قَلْبِ ٱلأَسَدِ إِلّا نَموذَجٌ لِما كانَ يَتَحَلّى بِهِ مِنْ كَريمِ ٱلخِصالِ وَحَميدِ ٱلأَخْلاقِ . لَقَدْ كانَ وَديعًا حَليمًا ، مُحِبًّا لِعَمَلِ ٱلخَيْرِ ، لا يُفَرِّقُ بَيْنَ أَميرٍ وَحَقيرٍ فَقَدْ وُلِدَ ٱلجَميعُ أَحْرارًا .

وَها نَحْنُ نورِدُ ٱلقِصَّةَ كَما حَدَثَتْ ، قِصَّةَ ٱللِّقاءِ بَيْنَ صَلاحِ ٱلدِّينِ وَرِيتْشارد قَلْبِ ٱلأَسَدِ :

نَعْلَمُ أَنَّ عِدَّةَ مَعارِكَ قَدْ جَرَتْ بَيْنَ صَلاحِ ٱلدِّينِ وَرِيتْشارد ، وَكانَ جُنودُ ٱلمُسْلِمينَ يُحارِبونَ بِكُلِّ شَجاعَةٍ لِطَرْدِ ٱلغُزاةِ مِنْ دِيارِ ٱلإِسْلامِ . وَلَمّا نالَ ٱلإِعْياءُ مِنَ ٱلصَّليبِيِّينَ طَلَبُوا ٱلسِّلْمَ ، وَكانَ أَمامَ

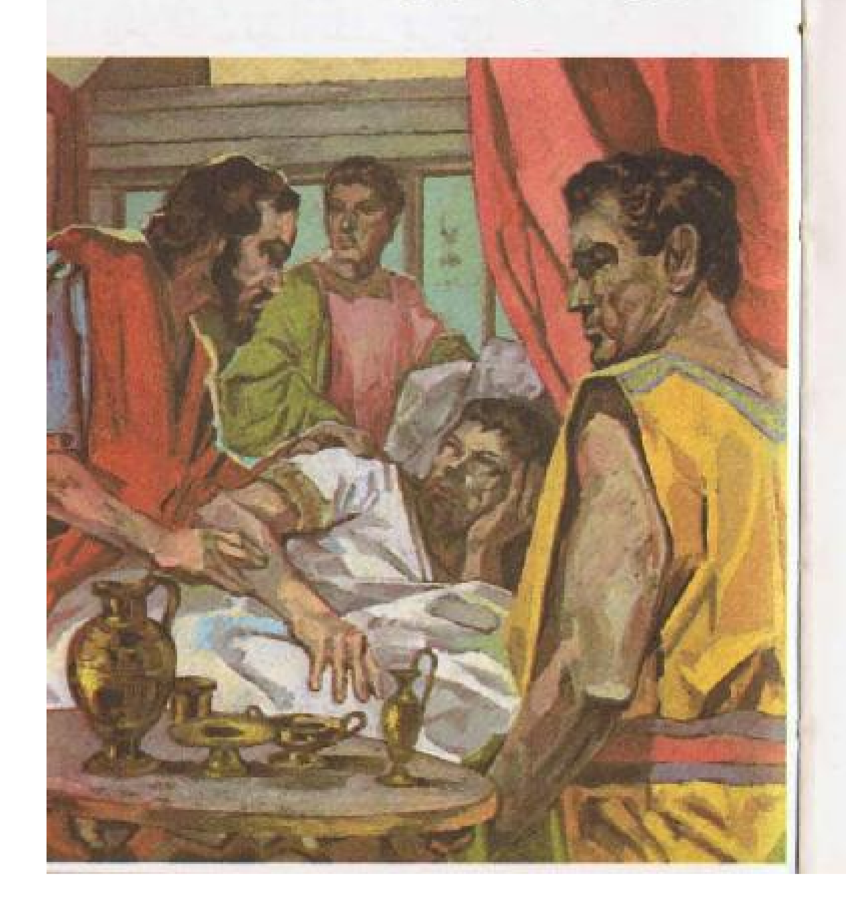
صَلاحِ آلدِّينِ إمَّا آلِاسْتِمْرارُ في آلقِتالِ أوْ قَبولُ آلسِّلْمِ . وَأخيرًا ، وَرَغْمَ ما حَقَّقَهُ مِنَ انْتِصاراتٍ في مُعْظَمِ آلمَعارِكِ آلَّتي خاضَها ، عَقَدَ اتِّفاقِيَّةَ سَلامٍ مَعَ ريتْشارد .

أرادَتْ بَعْضُ آلسَّيِّداتِ مِنْ عائِلَةِ ريتْشارد زِيارَةَ آلكَنيسَةِ ، وَطَلَبْنَ مِنْ صَلاحِ آلدِّينِ آلسَّماحَ لَهُنَّ بِذٰلِكَ . فَأجابَهُنَّ إلى طَلَبِهِنَّ بِكُلِّ لُطْفٍ ، وَلَمْ يُضايِقْهُنَّ أيُّ جُنْدِيٍّ وَهُنَّ في آلطَّريقِ إلى آلكَنيسَةِ . وَفي طَريقِ عَوْدَتِهِنَّ بَلَغَ مسامِعَ صَلاحِ آلدِّينِ قَوْلُهُن بِأنَّ ريتْشارد يَشْكو آلمَرَضَ بِسَبَبِ آلحُمّى آلَّتي أصابَتْهُ .

كانَ مِنَ آلسَّهْلِ عَلى صَلاحِ آلدِّينِ أنْ يَغْتَنِمَ فُرْصَةَ مَرَضِ ريتْشارد ، وَعَدَمِ وُجودِ آلقائِدِ آلصّالِحِ نِيابَةً عَنْهُ ، فَيَخوضَ مَعْرَكَةً جَديدَةً . وَلٰكِنَّ شَرَفَهُ وَكَرامَتَهُ فَرَضا عَلَيْهِ آلِالْتِزامَ بِاتِّفاقِيَّةِ آلسَّلامِ .

اسْتَدْعَى صَلاحُ آلدِّينِ بَعْضَ آلأطِبّاءِ وَأنْبَأهُمْ بِمَرَضِ ريتْشارد بِآلحُمّى . وَكانَ آلأطِبّاءُ آلعَرَبُ آنَذاكَ هُمُ آلمُتَمَيِّزينَ وَآلمُتَفَوِّقينَ في آلطِّبِّ . أمَرَهُمْ أنْ يَصْنَعوا عِلاجًا لِلْحُمّى . أخَذَ آلعِلاجَ مَعَهُ ، وَهُوَ في ثِيابِ طَبيبٍ ، وَقَصَدَ مُعَسْكَرَ ريتْشارد يَصْحَبُهُ خادِمُهُ . وَما إنْ وَصَلَ إلى مُعَسْكَرِ ريتْشارد حَتّى قالَ لَهُمْ : « أنا طَبيبٌ ، وَقَدْ جِئْتُ لِعِلاجِ مَلِكِكُمْ . » وَلٰكِنَّ آلصَّليبِيّينَ لَمْ يَثِقوا بِقَوْلِهِ ، بَلْ صَرَخوا

قائِلينَ : « لَنْ يُرْسِلَ صَلاحُ آلدِّينِ طَبيبًا لِعِلاجِ ريتْشارد . وَما جِئْتَ إلّا لِقَتْلِ مَلِكِنا . » وَمَنَعوهُ مِنَ آلدُّخولِ عَلى آلمَلِكِ .
لٰكِنَّ ريتْشارد سَمَحَ لِلرَّجُلِ بِآلدُّخولِ ، وَقالَ لِمَنْ حَوْلَهُ :



« سأموتُ بكُلِّ تأكيدٍ إنْ لمْ يقُمِ الطَّبيبُ بِعلاجي . أدْخِلوهُ ، فقدْ يُعطِيني دواءً ناجِعًا . »

وبَعْدَ ثلاثةِ أيّامٍ مِنْ تناوُلِ الدَّواءِ ، فارقَتِ الحُمّى رِيتْشارد ، ورَحَلَ الطَّبيبُ دونَ أنْ يَكْشِفَ عَنْ هُوِيَّتِهِ .

وإليْكُم قِصَّةٌ قصيرةٌ أُخرى تدورُ حَوْلَ صَلاحِ الدِّينِ :

في جَنوبِ الأُردُنِّ تقعُ مَدينةُ الكَرَكِ ، وفيها قلْعةٌ حَصينةٌ جِدًّا ، أعْجَزَتِ العَرَبَ عَنِ اقْتِحامِها والانْتِصارِ عَلى الصَّليبيِّينَ فيها . وكانَ الصَّليبيُّونَ يُقاتِلونَ العَرَبَ في الأماكِنِ القَريبةِ مِنَ القَلْعةِ ، فعَزَمَ صَلاحُ الدِّينِ عَلى انْتِزاعِها مِنْهُمْ . وفي اليومِ السّابِقِ لِلْمَعْرَكةِ ، سَمِعَ بَعْضُ العَرَبِ موسيقى تَنْبَعِثُ مِنْ أحَدِ أبْراجِ القَلْعةِ ، وكانَ المَوْجودونَ فيهِ يُغَنّونَ ويَرْقُصونَ عَلى أنْغامِها . أرْسَلَ صَلاحُ الدِّينِ بَعْضَ جُنودِهِ لِيَكْتَشِفوا سِرَّ المُوسيقى ، فوَجَدوا أنَّهُ سَتُقامُ في تِلْكَ اللَّيْلةِ حَفْلةُ زَواجٍ .

كانَ الجُنودُ العَرَبُ عَلى أتَمِّ اسْتِعْدادٍ لِخَوْضِ المَعْرَكةِ . أمَرَهُمْ صَلاحُ الدِّينِ أنْ يَبْدَأوا المَعْرَكةَ في الصَّباحِ بالاسْتيلاءِ عَلى القَلْعةِ ، عَلى ألّا يَقْتَرِبوا مِنَ البُرْجِ . وكانَتْ أوامِرُهُ إليْهِمْ : « ابْتَعِدوا عَنِ البُرْجِ ، فالحَرْبُ والزَّواجُ لا يَجْتَمِعانِ . »

في الصَّباحِ بَدَأتِ المَعْرَكةُ ، وحارَبَ المُسْلِمونَ في كُلِّ ناحيةٍ مِنْ نواحي القَلْعةِ ماعَدا البُرْجَ . وفي البُرْجِ الْتَقَوْا بالعَروسَيْنِ ولٰكِنَّهُمْ لَمْ يَمَسّوهُما بِسوءٍ بَلْ أكْرَموهُما . واسْتَضافَ صَلاحُ الدِّينِ العَروسَيْنِ أيّامًا عَديدةً ، ثُمَّ سَمَحَ لَهُما أخيرًا بالذَّهابِ أنّى أرادوا بِلا قُيودٍ عَلى تَحَرُّكاتِهِما .

اقْتَتَلَ الجَيْشانِ في مَعارِكَ أُخرى . وسَمِعَ المَلِكُ رِيتْشارد مُصادَفَةً القِصَّةَ الحَقيقيَّةَ عَنْ هٰذا الطَّبيبِ ، لِذٰلِكَ أعْرَبَ عَنْ عَدَمِ رَغْبَتِهِ في قِتالِ جَيْشِ صَلاحِ الدِّينِ بِقَوْلِهِ :

« أنا لا أسْتَطيعُ أنْ أُحارِبَ مَنْ أنْقَذَ حَياتي . كَيْفَ يَطيبُ لي أنْ أقْتُلَ مَنْ أنْقَذَني مِنَ المَوْتِ ؟ »

عَقَدَ رِيتْشارد مُعاهَدةَ صُلْحٍ ثانيةً مَعَ صَلاحِ الدِّينِ وعادَ إلى وَطَنِهِ إنْجِلْترا . وكانَ عَلَيْهِ أنْ يَمُرَّ بِفَرَنْسا الَّتي ساعَدَهُ مَلِكُها في فِلَسْطينَ . فما كانَ مِنْ مَلِكِ فَرَنْسا إلّا أنْ سَجَنَ رِيتْشارد . ولَمّا سَمِعَ الشَّعْبُ الإنْجليزيُّ بِما حَدَثَ لِلْمَلِكِ ، دَفَعَ أمْوالًا طائِلةً فِدْيةً لَهُ . إنَّ بَيْنَ تَصَرُّفِ صَلاحِ الدِّينِ وتَصَرُّفِ مَلِكِ فَرَنْسا فارِقًا كَبيرًا . لَقَدِ اتَّسَمَ تَصَرُّفُ صَلاحِ الدِّينِ بالرَّحْمةِ والتَّسامُحِ اللَّذَيْنِ أمَرَ بِهِما الدِّينُ الحَنيفُ .

الحكايات اللطيفة

١ - حكايات من ألف ليلة وليلة
٢ - البطة الصغيرة القبيحة وقصص أخرى
٣ - الجواد الأسود الشجاع
٤ - حكايات من تاريخ العرب
٥ - الصندوق العجيب وقصص أخرى
٦ - الحذاء السحري وقصص أخرى
٧ - أليس في بلاد العجائب
٨ - حورية النار وقصص أخرى
٩ - أولاد الغابة



مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت
رقم مرجع كمبيوتر 01 C 198 604